الفصل الثالث

العلاقات العامة

- أولاً : بر الوالدين
- ثانيًا : صلة الرحم
- ثالثًا : إكرام الجار
- رابعًا : قضاء الحوائج
- خامسًا : أدب الحديث
- سادسًا : التواصى بالحق
- سابعًا : الإخاء
- ثامنًا : الإيثار
- تاسعًا : الاتحاد
- عاشرًا : الإحسان

أولاً: بر الوالدين

يقول الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٢٤].

ويقول تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦]

ويقول: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨].

ويقول: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٤ - ١٥].

ويقول: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

ومن خلال تأملنا لهذه الآيات نرى أن الله عز وجل أوصى الإنسان بوالديه وأكد على ذلك، دون أن يوصى الأب بابنه أو الأم بابنها وذلك لأن الله عز وجل قد فطرهما على حبهما لأولادهما وعلى التضحية فى سبيلهما فالأب يجوع ليشبع أولاده ويتعرى ليكتسوا ويتعب ليستريحوا، الأم تسهر لينام فتقوم على راحتهم فلا تهنأ بطعام ولا شراب ولا نوم حتى تطمئن عليهم؛ فعاطفة الأمومة والأبوة تقومان مقام الوصية بالأولاد أما الأبناء فسرعان ما يكبرون ويتزوجون

ويكون لهم أولاد فيولون اهتمامهم لأبنائهم وقد ينسون الآباء فمن هنا جاء القرآن مؤكداً حقهما على الأبناء فقد أوجب الله عز وجل طاعتهما وبرهما وجعل طاعتهما تلي طاعته سبحانه وتعالى مباشرة، ففي قوله تعالى: ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** ﴾ ربط محكم بين عبادة الله تعالى والإحسان إلى الوالدين وفي ذلك رفع لقيمة الوالدين وإعلاء لشأنهما فقد روى الشيخان أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «يا رسول الله: أي العمل أحبّ إلى الله تعالى؟ قال: الصلاة على وقتها، قال: ثم أي؟ قال: بر الوالدين» (١).

ولكن يجب ألا يختل التوازن عند الأبناء في بر أحد الوالدين على حساب الآخر: «فقد جاء رجل ليبايع رسول الله ﷺ على الجهاد – أو يستأذنه في الجهاد – فسأله الرسول ﷺ: فهل من والديك أحد حي؟ فقال الرجل: نعم بل كلاهما حي، فيقول رسول الله ﷺ فتبتغي الأجر من الله تعالى؟ فيقول الرجل: نعم، فيقول رسول الله ﷺ فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما» (٢) ففي هذا الحديث تقرير من الرسول عليه الصلاة والسلام بوجوب البر لكلا الوالدين على السواء.

● **برهما بعد موتهما:**

سأل رجل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله هل بقي من بر أبوي شئ بعد موتهما أبرهما؟ قال نعم خصال أربع: الدعاء لهما والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما وإكرام صديقهما وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما» (٣).

إنه الوفاء لهما بعد موتهما، إنها لأعلى مراتب الحب والبر أن يوطد المسلم أواصر المودة والصلة بأهل ودهما، فقد قابل عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – صديقاً لوالده عمر رضي الله عنه فبالغ في بره وإكرامه، فقال بعض من معه: أما

---

(١) متفق عليه. (٢) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.
(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

كان يكفيك أن تتصدق عليه بدرهمين؟ فقال ابن عمر: قال النبى ﷺ «احفظ ود أبيك، لا تقطعه فيطفئ الله نورك» (١).

● **بر الوالدين المشركين:**

أوصى الله عز وجل ببر الوالدين المشركين، يقول الله تعالى ﴿ **وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا** ﴾.

تقول أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما: قَدِمَتْ علىَّ أُمى - وهى مشركة - فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام فاستفتيت الرسول عليه الصلاة والسلام قلت: قَدِمَتْ علىَّ أمى وهى راغبة، أفاصل أمى؟ قال: نعم صلى أمك» (٢).

● **البر فى حالة الكبر:**

خص الله تعالى حالة الكبر فقال: ﴿ **إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا** ﴾. وذلك لأنها الحالة التى يحتاج فيها الوالدان إلى الرعاية الخاصة، وذلك لتغير الحال عليهما بالضعف والكبر، فيجب على الولد أن يكون معهما فى خير ذلةٍ فى أقواله وأفعاله وسكناته ونظراته.

فقد سأل رجل سعيد بن المسيب رضى الله عنه، قائلاً: لقد فهمت آية بر الوالدين كلها إلا قوله تعالى ﴿ **وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا** ﴾ فكيف يكون القول الكريم»، فأجابة سعيد يعنى خاطبهما كما يخاطب العبد سيده.

وكان ابن سيرين - رحمه الله - يكلم والدته بصوت ضعيف كأنه صوت مريض إجلالاً لها واحترامًا وتوقيراً.

● **الفروض لا تنفع مع العقوق:**

رُوى عن عمرو بن مُرة الجهنى رضى الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ، فقال: يا رسول الله، شهدت ألا إله إلا الله وأنك رسول الله وصليت الخمس،

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

وأديت زكاة مالي وصمت رمضان، مالي؟ - يعنى من الأجر والثواب - فقال ﷺ «من مات على هذا كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة هكذا - ونصب بين إصبعيه - ما لم يعق والديه» (١).

● **عقوق الوالدين من الكبائر:**

فكما أن بر الوالدين من أعظم القربات إلى الله تعالى فإن عقوقهما من أكبر الكبائر، قال رسول الله ﷺ: ألا أُنبئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثًا، قالوا: بلى يا رسول الله. قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئًا فجلس وقال: ألا وقول الزور وشهادة الزور» (٢).

● **العقوق ذنب معجل عقوبته:**

رُوى عن أبى بكرة رضى الله عنه، عن النبى ﷺ أنه قال: «كل الذنوب يؤخر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة، إلا عقوق الوالدين فإن الله تعالى يعجله لصاحبه فى الحياة الدنيا قبل الممات» (٣).

● **التسبب فى سب الوالدين من الكبائر:**

يقول رسول الله ﷺ «إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه فاستغرب القوم، فقالوا: وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه» (٤).

● **عقوق الوالدين يورث سوء الخاتمة:**

رُوى عن عبد الله بن أبى أوفى رضى الله تعالى عنه قال: كنا عند النبى ﷺ فأتاه آتٍ فقال: يا رسول الله: شابٌ يجود بنفسه، فقيل له: قل لا إله إلا الله، فلم يستطع! فقال ﷺ: أكان يصلى؟ فقال: نعم فنهض الرسول ﷺ ونهضنا معه

---

(١) رواه أحمد والطبرانى.
(٢) متفق عليه من حديث أبى بكره نفيع بن الحارث.
(٣) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد.
(٤) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

فدخل على الشاب وقال له قل لا إله إلا الله! فقال لا أستطيع قال لِمَ؟ قال: كنت أعق والدتى. فقال النبى ﷺ: أحية والدته؟ قالوا: نعم، قال: ادعوها فدعوها فجاءت، فقال عليه الصلاة والسلام: هذا ابنك؟ قالت نعم، فقال لها: أرأيت إن أُججت نارٌ ضخمة؟ فقيل لك إن شفعت له خلينا عنه، وإلا أحرقناه بهذه النار؟ أكنت تشفعين له؟ قالت: يا رسول الله إذًا أشفع، قال فأشهدى الله وأشهدينى أنك قد رضيت عنه، قالت: اللهم إنى أُشهدك، وأُشهد رسولك أنى قد رضيت عنه! فقال عليه الصلاة والسلام: يا غلام قل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فقالها الغلام، فقال عليه الصلاة والسلام: الحمد لله الذى أنقذه بى من النار» (١).

● **ليس للوالدين من طاعة فى حق الله:**

لا شك أن رابطة الإيمان والعقيدة هى من أقوى الروابط وأوثقها على الإطلاق فإذا انقطعت هذه الرابطة بين الوالدين وولدهما فكان الابن مستظلاً براية التوحيد والأبوان يقفان تحت راية أخرى غيرها فحينها ليس للوالدين حق الطاعة والإتباع ولكن لهما فقط حسن المعاملة وحسن الرعاية. فقد كان سعد بن أبى وقاص باراً بأمه، فقالت له: ما هذا الدين الذى أحدثت؟ والله لا آكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما أنت عليه أو أموت فتعير بذلك أبد الدهر، يقال: يا قاتل أمه. ثم إنها مكثت يومًا وليلةً لم تأكل ولم تشرب، فجاء سعد عليها وقال: يا أماه: لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت دينى، فكلى إن شئت، وإن شئت فلا تأكلى، فلما أيست منه أكلت وشربت، فأنزل الله قوله تعالى ﴿**وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [العنكبوت: ٨] (٢).

● **كيف يفعل الولد الطائع مع الوالد الفاسق:**

قد يكون الوالدان أو أحدهما منحرفًا عن جادة الصواب، بأن يكون تاركًا

---

(١) رواه الطبرانى وأحمد.

(٢) رواه الترمذى.

لفريضة أو مرتكبًا لكبيرة، فواجب الابن الطائع البار بوالديه فى هذه الحالة أن يتأتى إليهما برفق وتؤدة وسماحة ليزحزحهما عن الغى الذى يتمسكان به فلا يشتد ولا ينهر ولا يعق ولا يقسو ولا يغلظ بل يحاول إنقاذهما مما هما فيه، ويستعين عليهما بالدعاء إلى الله عز وجل لهما بالهداية.

فقد روى مسلم عن أبى هريرة قال: كنت أدعو أمى إلى الإسلام وهى مشركة فدعوتها يومًا فأسمعتنى فى رسول الله ﷺ ما أكره، فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكى قلت: يا رسول الله: إنى كنت أدعو أمى إلى الإسلام فتأبى علىَّ، فدعوتها اليوم فأسمعتنى فيك ما أكره فادع الله أن يهدى أم أبى هريرة. فقال رسول الله ﷺ: اللهم أهد أم أبى هريرة فخرجت مستبشراً بدعوة النبى ﷺ فلما جئت فصرت إلى الباب. فإذا هو مجاف فسمعت أمى خشف قدمى فقالت: مكانك! يا أبا هريرة! وسمعت خضخضة الماء قال: فاغتسلت ولبست درعها وعجلت عن خمارها ففتحت الباب ثم قالت: يا أبا هريرة! أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأتيته وأنا أبكى من الفرح قال: قلت يا رسول الله: أبشر قد استجاب الله دعوتك وهدى أم أبى هريرة. فحمد الله وأثنى عليه وقال: خيراً قال: قلت يا رسول الله: ادع الله أن يحببنى أنا وأمى إلى عباده المؤمنين ويحببهم إلينا. قال: فقال رسول الله ﷺ «اللهم حبب عبدك هذا - بقصد أبا هريرة - وأمه إلى عبادك المؤمنين وحبب إليهم المؤمنين، فما خلق مؤمن ولا يرانى إلا أحبنى» (١).

● حكم الجهاد فى سبيل الله بغير إذن الوالدين:

لا يتطوع الولد للجهاد فى سبيل الله إلا بإذن والديه، فقد روى عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال: «جاء رجلٌ إلى النبى ﷺ فاستأذنه فى الجهاد، فقال أحى والداك؟ قال: نعم. قال ففيهما فجاهد» (٢).

---

(١) رواه مسلم فى كتاب فضائل الصحابة - باب: من فضائل أبى هريرة الدوسى.
(٢) متفق عليه.

أما إذا تعين الجهاد (صار فرض عين) فلا يجب إذن الوالدين حينئذ يقول تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

يقول القرطبي في المسألة الرابعة في تفسيره لهذه الآية «وذلك إذا تعين الجهاد بغلبة العدو على قطر من الأقطار، أو بحلوله بالعقر، فإذا كان ذلك وجب على جميع أهل تلك الدار أن ينفروا ويخرجوا إليه خفافًا وثقالاً، شبابًا وشيوخًا، كل على قدر طاقته، من كان له أب بغير إذنه ومن لا أب له، ولا يتخلف أحد يقدر على الخروج، من مقاتل أو مكثر. فإن عجز أهل تلك البلدة عن القيام بعدوهم كان على من قاربهم وجاورهم أن يخرجوا على حسب ما لزم أهل تلك البلدة، حتى يعلموا أن فيهم طاقة على القيام بهم ومدافعتهم. وكذلك كل من علم بضعفهم عن عدوهم وعلم أنه يدركهم ويمكنه غياثهم لزمه أيضا الخروج إليهم، فالمسلمون كلهم يد على من سواهم، حتى إذا قام بدفع العدو أهل الناحية التي نزل العدو عليها واحتل بها سقط الفرض عن الآخرين. ولو قارب العدو دار الإسلام ولم يدخلوها لزمهم أيضًا الخروج إليه حتى يظهر دين الله وتُحمى البيضة وتحفظ الحوزة ويخزى العدو. ولا خلاف في هذا»[1].

● **حدود طاعة الوالدين:**

طاعة الوالدين لا تجب إذا أمرا بمعصية الله تعالى، بل الواجب حينئذ عدم الطاعة، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وذلك لأن طاعة الوالدين مقيدة وليست مطلقة. يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء: ٥٩].

فالله - عز وجل - جعل طاعته طاعةً مطلقةً، وطاعة رسوله ﷺ طاعةً

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ج ٨.

مطلقةً، ولم يُطلق طاعة أولى الأمر – ومنهم الوالدان – فهى مقيدة بموافقتها لطاعة الله ورسوله.

وأما إذا أمر الوالدان بشئ مباح ولكن يوقع ضرراً لا مبرر لوقوعه فحينئذ أيضًا لا تجب الطاعة، كأن يأمر الأب ابنه بأن يطلق زوجته دون مبرر إلا لمجرد الطاعة.

وأما بالنسبة لموقف إبراهيم عليه السلام حين أمر ابنه إسماعيل أن يطلق زوجته – كما ثبت ذلك فى الصحيح – وموقف عمر بن الخطاب حينما أمر ابنه عبد الله أن يطلق زوجته – كما ثبت كذلك – فهذا لا يقاس عليه لأن الآباء فى تقديرهم ورشدهم ليسوا كإبراهيم عليه السلام وليسوا كعمر رضى الله عنه، وأما طاعتهما فى المباح والمندوب فهى واجبة ما لم يترتب على ذلك ضرر.

● **طاعة الوالدين فى المسائل الخلافية:**

إذا أمر الوالدان أو أحدهما بأمر فيه خلاف شرعى بين الحل والحرمة، فيجب على الابن أن يوازن بين الضرر الناتج عن طاعته لوالديه والضرر الناتج عن مخالفته لهما، فأى الأمرين كان أخف ضرراً فعله الابن، فإذا كانت مخالفة الوالدين لهذا الأمر ينتج عنه مالا يمكن دفعه فالذى أراه وأنصح به أن تقدم حينئذ طاعتهما من باب ارتكاب أخف الضررين.

● **كيف يوفق الداعية بين دعوته وطاعته لوالديه:**

بعض الشباب الذين يُمن الله عز وجل عليهم بالهداية ومعرفة طريق الدعوة يتعجل الأمور ويريد أن يُغير كل شئ فى يوم وليلة، فتراه يعطى للمندوبات حجم الواجبات والمكروهات حجج المحرمات؛ وقد يُضخم بعض الفرعيات فتطغى على الكليات، فهو بتعجله هذا يجلب على نفسه ما لا يمكن أن يتحمله فى تلك الفترة، وبعدم توازنه بين الأمور يجلب على نفسه العنت والمشقة. ولكن الأسلوب الأمثل – فى رأيى – هو ضبط هذه الحماسة وتوجيهها الوجهة السليمة، ومراعاة الأولويات من فقه الدعوة، والتدرج فى التغيير سنة من سنن الله

عز وجل فى الكون. ولكى يوفق الشاب بين دعوته وطاعته لوالديه فيجب عليه أن يشخص حالة والديه، فإذا كان الوالدان محاربين للدعوة عن اعتناق لفكر آخر معادٍ للدعوة، فننصح حينها بألا يكون هناك مواجهة بين الابن ووالديه، بل يكون التعامل معهما حينئذ بالفطنة والكياسة وذلك لخطورة الموقف حينئذٍ وذلك حتى لا يلاقى الابن مالا يمكنه أن يتحمله فتكون الفتنة عن الهداية. وأما إن كانت محاربة الوالدين لابنهما عن خوف عليه - كعادة الكثير من الآباء والأمهات - فيجب على الولد حينئذ أن يُطمئن والديه ويذكرهما دائمًا بأهمية وضرورة الإيمان بالقضاء والقدر، وأن ما قدر للإنسان فإنه ملاقيه لا محالة، وعليه كذلك أن يكسب ودهما ويتلطف معهما دون التخلى عن دعوته أو التنازل عن مبدأ.

* * *

ثانيًا: صلة الرحم

يقول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ [النساء: ١].

ويقول: ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً ﴾

[الإسراء: ٢٦]

ويقول: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴾

[النساء: ٣٦]

ومن خلال هذه الآيات يتبين لنا كيف أن المعاملات متصلة بالعقيدة اتصالاً وثيقًا بل إن المعاملات إنما تنبثق من العقيدة، والله سبحانه وتعالى فى الآية الأولى ربط بين تقواه سبحانه وتعالى وتقوى الرحم ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ﴾ وتقوى الله نعلمها وأما تقوى الأرحام فمعناها أن نتعامل مع الأرحام بحذرٍ شديد ونتقيها حتى لا تُجرح وحتى لا تُخدش فيجعل الإنسان بينه وبين الأرحام وقايةً تحميها من كل شئ قد يؤثر عليها.

فهنا قرن الله سبحانه وتعالى بين تقواه عز وجل وتقوى الرحم لما لها من قداسةٍ خلعها الله عز وجل عليها.

وفى الآية الثالثة نجد أن الله عز وجل ربط أيضًا بين العقيدة المتمثلة فى إفراد الله بالعبودية وبين صلة الرحم والإحسان إلى ذى القربى.

* * *

فضل صلة الرحم

١ - صلة الرحم من الإيمان:

روى الشيخان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت».

٢ - تزيد الرزق والعمر:

روى البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سره أن يُبسط له فى رزقه وأن يُنسأ له فى أثره فليصل رحمه».

٣ - تجلب حب الأهل وثراء المال:

أخرج البخارى فى الأدب المفرد من حديث ابن عمر رضى الله عنهما: «من اتقى ربه ووصل رحمه، نُسئ له فى عمره، وثرى ماله، وأحبه أهله».

٤ - صلة الرحم تكفر الذنوب:

روى ابن حبان والحاكم عن ابن عمر رضى الله عنهما: قال: أتى النبى ﷺ رجلٌ فقال: إنى أذنبت ذنباً فهل لى من توبة؟ فقال: هل لك من أم؟ قال لا، قال فهل لك من خالة؟ قال: نعم، قال فبرها».

٥ - صلة الرحم تيسر الحساب وتدخل الجنة:

روى البزار والطبرانى والحاكم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ثلاث من كن فيه حاسبه الله حساباً يسيراً وأدخله الجنة برحمته. قالوا: وما هى يا رسول الله؟ بأبى أنت وأمى؟ قال: تعطى من حرمك وتصل من قطعك وتعفو عمن ظلمك فإن فعلت ذلك يدخلك الله الجنة».

٦ - صلة الرحم ترفع الدرجات:

روى البزار والطبرانى عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أدلكم على ما يرفع الله به الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال:

تحلم على من جهل عليك وتعفو عمن ظلمك، وتعطى من حرمك، وتصل من قطعك».

٧ - صلة الرحم أعجل الطاعة ثوابًا:

أخرج أبو داود فى السنن وأورده الألبانى فى صحيح الجامع الصغير من حديث أبى بكرة. رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ما من ذنب أجدر أن يجعل الله تعالى لصاحبه العقوبة فى الدنيا مع ما يدخره له فى الآخرة من قطيعة الرحم، والخيانة والكذب، وإن أعجل الطاعة ثوابًا لصلة الرحم حتى إن أهل البيت ليكونوا فجرة فتنموا أموالهم ويكثر عددهم إذا تواصلوا».

٨ - صلة الرحم تدفع ميتة السوء:

روى أبو يعلى عن أنس بن مالك رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ «إن الصدقة وصلة الرحم يزيد الله بهما فى العمر ويدفع بهما ميتة المكروه والمحذور».

* * *

عقوبة قاطع الرحم

١ - قاطع الرحم لا يدخل الجنة ابتداءً بل لا بد من عقوبته:

روى البخارى من حديث جبير بن مطعم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قاطع» أى قاطع رحم.

٢ - قطع الرحم يعجل العقوبة فى الدنيا:

روى أبو داود من حديث أبى بكرة: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة فى الدنيا مع ما يدخره له فى الآخرة من البغى وقطيعة الرحم».

٣ - لا يُقبل عمل قاطع الرحم:

روى البخارى فى الأدب المفرد من حديث أبى هريرة مرفوعًا: «إن أعمال بنى آدم تُعرض كل عشية خميس ليلة جمعة فلا يقبل عمل قاطع رحم».

٤ - أبواب السماء مغلقة دون قاطع الرحم:

روى الطبرانى من حديث ابن مسعود رضى الله عنه: «أن أبواب السماء مغلقةٌ دون قاطع الرحم».

وأخرج الطبرانى عن الأعمش قال: كان ابن مسعود جالسًا بعد الصبح فى حلقة فقال: «أنشد الله قاطع رحم لما قام عنا، فإنا نريد أن ندعوا ربنا وإن أبواب السماء مرتجة دون قاطع الرحم» (١).

٥ - لا تنزل الرحمة على قوم فيهم قاطع رحم:

روى البخارى فى الأدب المفرد من حديث ابن أبى أوفى - مرفوعًا - «إن الرحمة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم».

٦ - من قطع الرحم قطعه الله:

روى البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه - عن النبى ﷺ، قال: إن الله - تعالى - خلق الخلق حتى إذا فرغ من خلقه، قالت الرحم هذا مقام العائذ بك من القطيعة. قال: نعم؛ أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى يا رب، قال فهو لك.

قال رسول الله ﷺ: فاقرءوا إن شئتم ﴿**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ**﴾ [محمد: ٢٢].

* * *

الأرحام أولى بالصدقات

١ - قال رسول الله ﷺ: «الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذى الرحم ثنتان، صدقةٌ وصلةٌ» (٢).

---

(١) قال الهيثمى: رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح إلا أن الأعمش لم يدرك ابن مسعود.

(٢) رواه أحمد والترمذى وقال حديث حسن، والنسائى وابن ماجة والحاكم عن سليمان ابن عامر وصححه الألبانى فى صحيح الجامع.

٢ – روى البخارى ومسلم من حديث أنس بن مالك قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل وكان أحب أمواله إليه بَيْرَحاء وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماءٍ فيها طيب فلما نزلت هذه الآية ﴿ **لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ** ﴾ [آل عمران: ٩٢].

قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله: إن أحب مالى إلى بيْرَحاء، وإنها صدقة لله تعالى أرجو برها وذخرها عند الله تعالى فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. فقال رسول الله ﷺ: «بخٍ ذلك مالٌ رابح ذلك مالٌ رابح، وقد سمعت ما قلت، وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين، فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه».

* * *

ليس الواصل الذى يعامل أرحامه بالمثل

بعض الناس يعاملون أرحامهم معاملة التجار، فإن أحسنوا إليهم ردوا بالإحسان وإن أساءوا إليهم ردوا بالإساءة؛ فهؤلاء يقول لهم رسول الله ﷺ: «ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذى إذا قُطعت رحمه وصلها»(١).

وقد جاء رجل إلى النبى ﷺ، فقال: يا رسول الله: إن لى قرابةً أصلهم ويقطعونى، وأحسن إليهم ويسيئون إلىَّ ويجهلون علىَّ وأحلم عنهم، قال: لئن كان كما تقول كأنما تُسفهم الملَّ ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك»(٢).

* * *

وصل الرحم العامة

رُوى أن رجلاً قدم إلى معاوية، فقال له: سألتك بالرحم التى بينى وبينك؛ قال معاوية: أمِنْ قريشٍ أنت؟ قال: لا. قال: فمن سائر العرب؟ قال: لا. قال: فأية رحم بينى وبينك؟ قال: رحم آدم! فابتسم معاوية وقال: رحم مجفوة والله لأكونَنَّ أول من يصلها، وقضى حاجته.

---

(١) رواه البخارى من حديث الحسن بن عمرو مرفوعًا.

(٢) رواه مسلم وأحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه، والملّ هو الرماد الحار.

الأرحام أولى بالدعوة إلى الله

لا شك أن أقرب الناس لقبول الدعوة هم أقارب الداعية، وذلك لأنهم أكثر الناس معرفة به، وأكثر الناس حرصًا على حمايته، واستماتة فى الذود عنه وهم أحرص الناس على حفظ أسراره، والثبات معه عند المحن والشدائد. لذا فإن لوطًا عليه السلام حينما رأى نفسه يقف أمام القوم وحده بلا عصبة ولا عشيرة تعضده وتشد من أزره ﴿ **قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ** ﴾

[هود: ٨٠]

وأما عن شعيب فإنهم كانوا يحسبون ألف حساب لعشيرته وأهله.

﴿ **قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ** ﴾ [هود: ٩١].

وغالبا ما تقف العشيرة وراء ابنها الداعية؛ ولكن إذا وقفت وراءه مؤمنة بدعوته فإن ذلك له أكبر الأثر على قوة انطلاق الدعوة ونجاحها فكانت قوتهم قوة للدعوة، وأما إذا وقفت وراءه عصبيةً وحميةً فقط كان فى ذلك قوة للداعية فقط.

لذا فإن رسول الله ﷺ كان حريصًا على إسلام أهله وعشيرته، وهكذا ينبغى على الداعية أن يركز على دعوة أقاربه، فهم آخر الناس تخليًا عنه وهم آخر الناس انفضاضًا من حوله، وليعلم الداعية أن دعوته لأقاربه حق لهم عليه، فإذا كانوا أولى بصدقته من غيرهم فهم أحوج إلى دعوته من غيرهم!.

* * *

شبهات يثيرها بعض الدعاة

قد يُقَصِّر بعض الدعاة فى دعوة أقاربهم بل وأبنائهم وبناتهم ويبرر تقصيره هذا ببعض النصوص من القرآن مثل قوله تعالى: ﴿ **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾ [القصص: ٥٦].

وقوله: ﴿ **لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وإذا عُوتب فى ذلك يقول: لقد كان أبو إبراهيم – عليه السلام – كافراً، وكان ابن نوح – عليه السلام – كافراً، وكانت زوجة نوح وزوجة لوط كافرتين إلى آخر هذه الحجج الواهية!.

ولو تأملنا فى هذه الآيات وغيرها نجد أنه صلى الله ﷺ كان يبذل مجهوداً غير عادى ويكلف نفسه فوق طاقتها فى دعوة أقاربه، وكان يشق عليه عدم استجابتهم فكان يحزن حزناً شديداً!.

ولذا فإن الله عز وجل يقول له: ﴿ **فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا** ﴾ [الكهف: ٦].

فأين نحن من هذا؟!

وأما عن أبى إبراهيم، وابن نوح، وزوجة نوح، وزوجة لوط، فهؤلاء جميعاً يجعلهم بعض الدعاة شماعة يعلقون عليها تقصيرهم فى دعوة ذويهم؛ ومن منا بذل مع أبيه ما بذله إبراهيم مع أبيه؟! ومن منا فعل مع ابنه ما فعله نوح؟! ومن منا فعل مع زوجته ما فعله نوح ولوط؟!

ومن منا فعل مع عمه ما فعله محمد ﷺ؟!

وأنا لا أعنى بذلك أن القلوب بيد أحد يصرفها إلى الهدى حيث يشاء! كلا؛ إن القلوب بيد الله يصرفها حيث يشاء. ولكن لا يعنى هذا أن نترك العمل والسعى.

* * *

مؤشر خطـــر

نرى كثيراً من الدعاة إلى الله – عز وجل – لا يجعلون أولادهم وزوجاتهم مجالاً للدعوة! فكثيراً ما تجد أولاد الدعاة ليسوا دعاةً!! بل وربما وجدتهم يسيرون فى إتجاه مضاد تماماً لما عليه آباؤهم، والسبب فى ذلك هو أن الآباء لم يجعلوهم مجالاً لدعوتهم.

ثالثا : إكـرام الجـــار

يقول الله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا به شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا ﴾

[النساء : ٣٦]

فهذه الآية الكريمة أرجعت الإحسان إلى الوالدين وذى القربى واليتامى والمساكين والجيران وابن السبيل وما ملكت اليمين أرجعت كل ذلك إلى أصل واحد وهو عبودية الله وعدم الإشراك به، فهو الربط بين العقيدة والمعاملة.

يقول صاحب الظلال – رحمه الله –« إن التشريعات والتوجيهات – فى منهج الله – إنما تنبثق كلها من أصل واحد، وترتكز على ركيزة واحدة، إنها تنبثق من العقيدة فى الله، وترتكز على التوحيد المطلق سمة هذه العقيدة . . ومن ثم يتصل بعضها ببعض؛ ويتناسق بعضها مع بعض؛ ويصعب فصل جزئية منها عن جزئية؛ وتصبح دراسة أى منها ناقصة بدون الرجوع إلى أصلها الكبير الذى تلتقى عنده؛ ويصبح العمل ببعضها دون البعض الآخر غير وافٍ بتحقيق صفة الإسلام؛ كما أنه غير وافٍ بتحقيق ثمار المنهج الإسلامى فى الحياة » . انتهى

وقد جاءت السنة المشرفة مبينة ومفصلة حدود الجوار، وحقوقه، وجاء التطبيق العملى للرسول ﷺ وأصحابه والتابعين لهم بإحسان.

أولا : حدود الجوار :

« فقد روى الطبرانى عن كعب بن مالك رضى الله عنه قال : أتى رسول الله ﷺ رجلٌ فقال : يا رسول الله إنى نزلت فى محلة بنى فلان، وإن أشدهم إلىَّ أذىً أقربهم لى جواراً، فبعث رسول الله ﷺ أبا بكرٍ وعمرَ وعليًا رضى الله عنهم يأتون المسجد، فيقومون على بابه، فيصيحون ألا إن أربعين داراً جار، ولا يدخل الجنة

من خاف جارُه بوائقه » أى شروره . أى أن حدود الجوار أربعون جاراً من كل جهة من الجهات .

ثانيًا : حقوق الجار على جاره :

(أ) كف الأذى عن الجار :

إذا كان كف الأذى عن الناس عمومًا أمراً أوجبه الله عز وجل، وجعله من حُسن الخلق الذى جاء به الإسلام، فإن كف الأذى يزداد وجوبًا فى حق المسلم عمومًا، بل ويزداد أكثر فى حق الجار .

فقد روى الإمام أحمد والطبرانى عن المقداد بن الأسود رضى الله عنه قال : « قال رسول الله ﷺ لأصحابه : ما تقولون فى الزنا؟ قالوا : حرامٌ حرمه الله ورسوله، فهو حرامٌ إلى يوم القيامة، قال : فقال رسول الله ﷺ لأن يزنى الرجل بعشرة نسوة أيسر عليه من أن يزنى بامرأة جاره، قال : ما تقولون فى السرقة؟ قالوا حرمها الله ورسوله فهى حرامٌ إلى يوم القيامة قال : لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسرُ عليه من أن يسرق من جاره » .

بل إن رسول الله ﷺ نفى كمال الإيمان عن الذى لا يأمن جاره من شره .

فقال ﷺ « والله لا يؤمن .. والله لا يؤمن .. والله لا يؤمن » .

قيل يا رسول الله : لقد خاب وخسر .. من هذا؟ قال : « من لا يأمن جارُه بوائقَهُ » قالوا : وما بوائقُهُ؟ قال : شره » (١) .

بل إن رسول الله ﷺ جاءه رجل ذات يوم يشكو جاره، فقال له : « اطرح متاعك على الطريق » فطرحه، فجعل الناس يمرون عليه ويلعنونه؛ فجاء إلى النبى ﷺ، فقال : يا رسول الله لقيت من الناس .. قال« وما لقيت منهم؟ » قال : يلعنونى، قال : « لقد لعنك الله قبل الناس » فقال : إن لا أعود فجاء الذى شكاه إلى النبى ﷺ، فقال له : « ارفع متاعك فقد كُفيتَ » (٢) .

---

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه الطبرانى والبزار بإسناد حسن بنحوه .

فانظر كيف جعل الرسول ﷺ الرأى العام ضد هذا الرجل حتى لامه كل الناس ولعنوا فعله هذا حتى اضطروه أن يراجع نفسه ويكف أذاه.

بل إن الرسول ﷺ يبين فى حديث أكثر صراحة ووضوحًا أن العبادة مع إيذاء الجار والإصرار على ذلك لا تغنى عن صاحبها شيئًا.

فقد قال رجل: يا رسول الله .. إن فلانةً تكثر من صلاتها وصدقاتها وصيامها .. غير أنها تؤذى جيرانها بلسانها، قال: «هى فى النار».

قال: يا رسول الله: فإن فلانةً تذكر من قلة صيامها وصلاتها، وأنها تتصدق بالأثوار من الأقط ولا تؤذى جيرانها، قال: «هى فى الجنة» (١).

فهذه أمرأة صوامةٌ قوامةٌ متصدقةٌ إلا أن عبادتها هذه لم تقوم سلوكها، ولم تهذب أخلاقها، فما أغنت عنها عبادتها، وأمرأة أخرى قليلة صلاة النوافل، قليلة صيام التطوع، قليلة صدقة التطوع - بحسب طاقتها - ولكن خلقها حسن، وسلوكها قويم، فقد أثرت فيها عبادتها فلها الجنة.

هذا وللأذى صور متعددة؛ فقد يؤذى الجار جاره بلسانه، بسببه، أو قذفه، أو غيبته، أو تجريحه، أو التشهير به - بدون داعٍ شرعى - وقد يؤذيه ببصره، بأن يتطلع إلى عوراته، وقد يؤذيه بأذنه، بأن يتجسس عليه ليطلع على أسراره، وقد يؤذيه بقلبه بالحقد، والحسد، والكراهية، والضغينة. وقد يؤذيه بهتك عرضه، أو سرقة ماله، أو ترويعه.

وقد يؤذى الجار جاره ببعض الأمور التى لا يظن أنها تؤذيه؛ كأن يرفع الجار صوت مذياعه ليشوش على جاره الذى يذاكر دروسه، أو ليقلق جاره النائم، أو يضايق جاره المريض؛ كل هذه صور من الأذى قد يغفل عنها بعض الناس وقد يؤذى الجار جاره بأن يكتم محاسنه، وينشر مسالبه.

وكان من دعاء داود عليه السلام: اللهم إنى أسألك أربعًا وأعوذ بك من أربعٍ، أسألك لسانًا صادقًا وقلبًا خاشعًا، وبدنًا صابرًا، وزوجة تعيننى على أمر

---

(١) رواه أحمد والبزار وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح الإسناد.

دينى ودنياى، وأعوذ بك من ولد يكون علىَّ سيداً، ومن زوجة تشيبنى قبل وقت المشيب، ومن مال يكون مشبعةً لغيرى بعد موتى ويكون حسابه علىَّ فى قبرى، ومن جار سوء إن رأى حسنةً كتمها، وإن رأى سيئةً أذاعها وأفشاها.

(ب) الإحسان إلى الجار:

لا يُكتفى بكف الأذى عن الجار، بل لابد أن يتعدى الجار ذلك إلى درجة الإحسان إليه بكل صور الإحسان فيقول ﷺ: «ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» (١).

ويقول أيضًا: «خير الأصحاب عند الله تعالى خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله تعالى خيرهم لجاره» (٢).

بل إن الرسول ﷺ ينفى عن الجار كمال الإيمان وتمامه إذا بات شبعانًا وجاره جائع وهو يعلم، فقال ﷺ: «ما آمن بى من بات شبعانًا وجاره جائع إلى جنبه، وهو يعلم» (٣).

أى ما آمن إيمانًا كاملاً تامًا يدفع صاحبه إلى الإحسان إلى الجار، وتفقد حاله.

ويقول سفيان الثورى - رحمه الله - من الجفاء أن يشبع الرجل وجاره جوعان لا يطعمه شيئًا.

وروى الخرائطى والطبرانى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبى ﷺ قال: «من أغلق بابه دون جاره مخافة على أهله وماله فليس ذلك بمؤمن، وليس بمؤمن من لم يأمن جاره بوائقه، أتدرى ما حق الجار؟ إذا استعان بك أعنته، وإذا استقرضك أقرضته، وإذا مرض عدته، وإذا أصابه خير هنأته، وإذا أصابته مصيبة عزيته، وإذا مات أتبعت جنازته، ولا تستطل عليه بالبنيان

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الترمذى وقال حديث حسن.

(٣) رواه الطبرانى والبزار وإسناده حسن.

فتحجب عنه الريح إلا بإذنه، ولا تؤذه بقتار ريح قدرك إلا أن تغرف له منها، وإن اشتريت فاكهةً فاهد له منها فإن لم تفعل فأدخلها سراً ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده».

وبيَّن رسول الله ﷺ درجات الجوار فيقول: «الجيران ثلاثة جار له حق: وهو المشرك، وجار له حقان: وهو المسلم، له حق الجوار، وحق الإسلام؛ وجار له ثلاثة حقوق: مسلم له رحم، فله حق الجوار، وحق الإسلام والرحم» (١).

وقال مجاهد: كنت عند عبد الله بن عمر، وغلام له يسلخ، فقال: يا غلام: إذا سلخت فأبدأ بجارنا اليهودى، حتى قال ذلك مراراً. لأنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما زال جبريل - عليه السلام - يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» (٢).

ومن النماذج التى سجلها التاريخ لتشهد للمسلمين بحُسن معاملتهم لأهل الذمة (٣) - مراعاة لحق الجوار - ما روى من أن عبد الله بن المبارك كان له جار يهودى، فأراد أن يبيع داره، فقيل له: بكم تبيع؟ قال بألفين، فقيل له: لا تساوى إلا ألفًا، قال: صدقتم، ولكن ألف للدار، وألف لجوار عبد الله ابن المبارك!! فأخبر ابن المبارك بذلك فدعاه فأعطاه ثمن الدار، وقال: لا تبعها!

ولولا ما لقيه اليهودى من حُسن جوار عبد الله بن المبارك ما نطق بهذه الشهادة.

(جـ) احتمال أذى الجار:

فلا يُكتفى أن تكف أذاك عنه، وتُحسن إليه، بل يجب أن تصبر على أذاه، ففى هذا رفع لدرجاتك عند الله تعالى، فقد روى البزار والطبرانى عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ألا أدلكم على ما يرفع الله به

---

(١) رواه الطبرانى عن جابر رضى الله عنه. (٢) متفق عليه.

(٣) أهل الذمة هم رعايا الدولة الإسلامية من أهل الكتاب.

الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: تحلم على من جهل عليك، وتعفو عمن ظلمك، وتعطى من حرمك، وتصل من قطعك».

وفى الحديث «ليس حُسن الجوار كف الأذى عن الجار. ولكن حُسن الجوار الصبر على أذى الجار»[1].

ويروى أن رجلاً جاء إلى ابن مسعود رضى الله تعالى عنه، فقال له: إن لى جاراً يؤذينى ويشتمنى ويضيق علىَّ، فقال: اذهب فإن هو عصى الله فيك فأطع الله فيه.

* * *

الداعية مع جيرانه

الإنسان بطبيعته أسير الإحسان، فهو يحب الذى يُحسن إليه، ومن ثَم فهو يطيعه عن حب، فالداعية ينبغى أن يدرك ذلك جيداً، وإحسان الداعية إلى جاره ينبغى أن يتميز عن إحسان المسلم العادى إلى جاره، فإحسان الداعية إلى جاره يعنى أن يعيش همومه ومشاكله وأحواله وأحزانه، فيكشف منها ما يعينه الله عليه، ويعيش الباقى معه بقلبه ووجدانه ونصحه وتوجيهه، والداعية الذى يعيش منزوياً عن جيرانه، لا يعرف عن ظروفهم وأحوالهم وهمومهم شيئاً كيف يستطيع أن يوصل لهم دعوته ؟!.

فإحسان الداعية إلى جيرانه يعنى أن يكون بيته قبلة لجيرانه، يقصده الجيران فى قضاء حوائجهم، يقصدونه لحفظ أسرارهم، يقصدونه لإبداء النصيحة والمشورة، يقصدونه لمعرفة أمور دينهم.

وأما أن يعيش الداعية فى برجه العاجى وينتظر أن يقول له الناس سمعنا وأطعنا فهيهات .. هيهات!

* * *

---

(١) رواه أبو داود والترمذى وحسنه ورواه ابن ماجه.

رابعًا: قضاء الحوائج

يقول الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [الحج: ٧٧].

ففى هذه الآية المباركة يأمر الله عز وجل المؤمنين بالركوع والسجود - كناية عن الصلاة - ثم يأمرهم بالعبادة عمومًا، ثم يقرن الله - عز وجل - بذلك الأمر بفعل الخير الذى يمثل مردود الصلاة والعبادة على معاملات الإنسان، وأخلاقه وسلوكه. ويقول تعالى: ﴿ **وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [البقرة: ١٤٨].

يبين الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية أن مذاهب الناس فى هذه الحياة مذاهب شتى فهذا يختار الكفر، وهذا يختار الإيمان، وهذا يختار الطاعة، وهذا يختار المعصية؛ وهذا يختار الظلمات، وهذا يختار النور؛ وهذا يعمل لعقيدة ودعوة، وهذا يعمل لشهوة ونزوة؛ وبينما هذه مذاهب الناس فإذا بالله يختار لنا فعل الخيرات والمسابقة إليها، ثم يربط الله - عز وجل - فعل الخيرات بجمع الله لنا لمحاسبتنا، وأن الله بقدرته وعظمته يفعل كل شئ.

يقول الشيخ محمد متولى الشعراوى - رحمه الله -: «إن غرور الدنيا قد يركب بعض الناس فيظنون أنهم فى منعة من الله وأنهم لن يلاقوه!! نقول لهم إنكم ستفاجأون فى الآخرة حين تعرفون أن الحساب حق، والجنة حق، والنار حق. ستفاجأون بما يحدث لكم .. ومن لم يؤمن ولم يسارع إلى الخير سيلقى الخزى والعذاب الأليم ..

إن الله ينصحنا أن نؤمن، وأن نسارع فى الخيرات لننجوا من عذابه»[١].

قلت: وحينئذ يكون الجزاء من جنس العمل وينفع الله الإنسان بما صنع من

---

(١) تفسير الشعراوى المجلد الأول ص ٦٥٧.

معروف، فقد بين ذلك رسول الله ﷺ فقال: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة، وما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»(١).

ففي هذا الحديث يبين لنا رسول الله ﷺ أن الله عز وجل يتولى بنفسه توفية الشخص بجزاء ما صنع من معروف لأخيه؛ فتفريج الكرب من العبد لأخيه يقابله تفريج الكرب من الله عز وجل للعبد، وتيسير العبد على أخيه يقابله تيسير الله على العبد، ومعاونة العبد لأخيه، ومشيه في قضاء حوائجه يقابله معاونة الله للعبد.

وفي الصحيحين عن حذيفة وأبي مسعود الأنصاري أنهما سمعا النبي ﷺ يقول: «مات رجل فقيل له: بم غفر الله لك؟

فقال: «كنت أبايع الناس فأتجاوز عن الموسر وأخفف عن المعسر».

فإكرام العبد لأخيه بالتخفيف عنه يقابله إكرام الله عز وجل له بالتجاوز عن سيئاته. وكان ابن عباس - رضي الله عنهما - يقول: «صاحب المعروف لا يقع وإذا وقع وجد متكأً».

* * *

صور من قضاء الحوائج وفعل المعروف

١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «كل سُلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين اثنين صدقة، وتعين

---

(١) رواه مسلم وأبو داود من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الرجل فى دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة» (١).

٢ - كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يحلب للحى أغنامهم، فلما استخلف قالت جارية منهم الآن لا يحلبها. فقال أبو بكر بلى وإنى لأرجو أن لا يغيرنى ما دخلت فيه شئ كنت أفعله.

٣ - رُوى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرج فى سواد الليل فرآه طلحة، فذهب عمر فدخل بيتًا، ثم دخل بيتًا آخر.

فلما أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت؛ فإذا بعجوز عمياء مقعدة! فقال لها: ما بال هذا الرجل يأتيك؟ قالت إنه يتعهدنى منذ كذا وكذا، يأتينى بما يصلحنى ويُخرج عنى الأذى!

فقال طلحة: ثكلتك أمك يا طلحة! أعثرات عمر تتبع!

٤ - فى الحديث «أفضل الأعمال إدخال السرور على المؤمن، كسوت عورته، أو أشبعت جوعته، أو قضيت له حاجته» (٢).

٥ - بعث الحسن البصرى قومًا من أصحابه فى قضاء حاجة لرجل وقال لهم: مروا بثابت البنانى فخذوه معكم فأتوا ثابتًا فقال: أنا معتكف فرجعوا إلى الحسن فأخبروه فقال: قولوا له يا أعمش أما تعلم أن مشيك فى حاجة أخيك المسلم خير لك من حجة بعد حجة، فرجعوا إلى ثابت، فترك اعتكافه وذهب معهم.

٦ - يقول مجاهد: صحبت ابن عمر فى السفر لأخدمه فكان يخدمنى، وكان كثير من الصالحين يشترط على أصحابه أن يخدمهم فى السفر.

* * *

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الطبرانى من حديث عمر مرفوعا.

الدعاة وقضاء الحوائج

كثير من الذين يتصدرون للدعوة إلى الله عز وجل يُقصِرون مفهوم الدعوة على مجرد الوعظ والإرشاد! أو التلقين والحفظ!

وأنا لا أُقلل من أهمية كل ذلك وضرورته ولكن ينبغى أن نتنبه إلى نقطتين:

الأولى: أننا لا نستطيع توصيل الدعوة من خلال الوعظ فقط أو التعلم فقط إذ ليس كل الناس يُقبل على التعليم والحفظ، ولا على استماع الوعظ والإرشاد فيجب أن ينخرط الدعاة فى خدمة الناس وقضاء حوائجهم فى سائر المؤسسات والهيئات فإن ذلك يعمل على الإتصال بكل أفراد المجتمع وإزالة الحواجز بينهم وبين الدعوة.

الثانية: أن أغلب الناس – إن لم يكن كلهم – تستطيع أن تأسره بالإحسان إليه وقضاء حوائجه فتوجد بذلك المودة والألفة التى تُوجد الصلة القلبية بينك وبينه، وكان ابن عباس رضى الله عنهما يقول: «ما رأيت رجلاً أوليته معروفًا إلا أضاء ما بينى وبينه، ولا رأيت رجلاً أوليته سوءًا إلا أظلم ما بينى وبينه».

ولكن قليل من الناس تستطيع أن تأسره بوعظك وعلمك.

ولذلك تنبهت الحملات التبشيرية (التنصيرية) لأثر الأعمال الخدمية على الناس فتوسعت فى ذلك وخصصت له الأموال الطائلة وذلك اقتناعًا منها بأثر ذلك على الناس.

فبم تفسر قيام إرساليات التنصير بإنشاء المدارس فى البلاد الإسلامية؟ وبم تفسر إقامة المستشفيات؟ وبم تفسر تلطفهم مع فقراء المسلمين؟ وبم تفسر مساعداتهم المادية لفقراء المسلمين ؟!.

فهل يبنون المدارس لتعليم المسلمين؟!

وهل يقيمون المستشفيات لمعالجة مرضى المسلمين؟

وهل يتلطفون مع فقراء المسلمين من باب إغنائهم ابتغاء وجه الله؟!

وهل يقدمون المساعدات المالية وتوفير فرص العمل مساعدة منهم فى حل مشاكل المسلمين؟!

أم يفعلون كل ذلك لسواد عيون المسلمين؟!

إنهم يفعلون كل ذلك خدمة لدعوتهم وعقيدتهم؟ وذلك لأنهم لو لم يكسبوا من كل ذلك سوى أن ينزعوا من قلوب المسلمين كراهيتهم لرضوا بذلك.

فكيف إذا تعلق بهم أطفال المسلمين وفقراؤهم؟!

وكيف إذا اكتسب الأطفال منهم سلوكهم وعاداتهم؟!

بل وكيف إذا استطاعوا أن يربوا أجيالاً فى ديار المسلمين صلتهم بالإسلام مبتوتة؟!

ولكن مما يشرح الصدر أن قطاعًا كبيراً من الدعاة يتفانون فى خدمة الناس وقضاء حوائجهم، فيسهرون ليلهم على حاجة الناس والسعى فى قضائها ليضربوا بذلك النموذج العملى للدعوة إلى الله عز وجل.

* * *

نماذج عملية من الخدمات الدعوية

النموذج الأول: لسيدنا موسى عليه السلام، وهو الموقف الذى ذكره لنا القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ **وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ** ﴾ [القصص: ٢٣، ٢٤].

فها هو موسى عليه السلام يخرج من مصر طريداً هاربًا فاراً من ملاحقة

جند فرعون له، فيخرج بلا زاد وبلا دليل إلى طريق مجهول، ويتجه إلى مكان مجهول لا يعرف فيه أحداً؛ يخرج موسى عليه السلام وحيداً إلا من معية الله، وبينما هو جالس فى الحر الشديد، بلا زاد وبلا استعداد إذا به يجد الرجال الرعاة يوزدون أغنامهم لتشرب من الماء؛ ثم نظر موسى فوجد امرأتين تمنعان غنمهما عن الماء، فلم يقبل موسى بفطرته السليمة ،أن يقعد عن تلبية دواعى الفطرة والمروءة وهو موسى المعروف بالنجدة والمعروف، والذى بالأمس القريب قتل نفساً – خطأ – من أجل أن استغاث به ضعيف. وأمام هذا الموقف تناسى موسى أنه متعب قد لاقى ما لاقى من الجوع والألم والخوف، فغالب كل هذا وقام فسقى لهما ثم لجأ إلى الله عز وجل يطلب منه المن والعطاء.

وهذا الموقف لموسى عليه السلام يبين لنا كيف أن كسب ود الناس يكون بقضاء حوائجهم، وكيف أن تفريج الكرب عن الناس يفتح قلوبهم للداعية.

فبمجرد أن وصلت البنتان إلى أبيهما وأخبرتاه بما كان من موسى وكيف أنهما احترمتا فيه شخصيته القوية ونفسه الذكية.

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾

[القصص: ٢٥ – ٢٦]

النموذج الثانى: لسيدنا محمد ﷺ:

لقد ضرب لنا رسول الله ﷺ المثل الأعلى فى التفانى فى قضاء حوائج الناس، حتى صارت حياته كلها هكذا، ونلمس ذلك فنجده واضحاً جلياً فى كلمات خديجة بنت خويلد – رضى الله عنها – لرسول الله ﷺ فى ليلة نزول الوحى عليه لأول مرة، حينما ذهب إلى خديجة قائلاً: زملونى زملونى وأخبرها الخبر، قالت له خديجة «كلا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم

وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق» (١).

وكل هذه الصفات تنم عن شخصية وجدت نفسها فى قضاء حوائج الناس وحُسن إكرامهم.

* * *

خامسًا: أدب الحديث

القدرة على الكلام والبيان من أجلِّ النعم التى أنعم بها الله على البشر؛ فالبيان من مقومات النجاح فى الحياة والتفاعل مع الغير، فيقول الله تعالى ﴿**الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾ [الرحمن: ١ - ٤].

إلا أن الناس كثيراً ما يتركون لأنفسهم الحبل على الغارب، فتضرب يميناً وشمالاً، يقول الله تعالى: ﴿**لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: ١١٤].

ومن ثَم أوصى الله عباده أن يختاروا من الكلام أحسنه وأنفعه حتى لا ينزغ الشيطان بينهم، فقال تعالى: ﴿**وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا**﴾ [الإسراء: ٥٣].

ووصف عباده بأنهم يترفعون عن مجاراة الجاهلين بنفس خطابهم، فقال تعالى: ﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا**﴾ [الفرقان: ٦٣].

ويقول تعالى: ﴿**وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ**﴾ [القصص: ٥٥].

---

(١) فقه السيرة للشيخ محمد الغزالى ص ١٠١.

وأمر الله سبحانه وتعالى الأمم السابقة كذلك بحُسن الخطاب والحوار وأدب الحديث فقال تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ** ﴾ [البقرة: ٨٣].

بل أمر الله تعالى بمجادلة أهل الكتاب بالتى هى أحسن دون سب ولا فُحش.

فقال تعالى: ﴿ **وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

والذى يسيح فى رياض السنة المشرفة يجد أنها عالجت آداب الحديث والحوار معالجة تامة وافية ومن هذه الآداب المستنبطة من السنة:

١ - التفكير فى أبعاد الكلام قبل النطق به:

فالمسلم ينبغى له أن يفكر فى الكلمة، فإن كانت خيراً تكلم بها وإن كانت شراً امتنع عنها، وإن كانت لا فائدة منها أمسك عنها، وأما أن يتكلم الإنسان بكل ما يجئ على لسانه فإنه بذلك يعرض نفسه للزلل وهو واقع فيه لا محالة.

فعن أبى هريرة رضى الله عنه: أنه سمع النبى ﷺ يقول: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها إلى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب» (١).

وفى حديث معاذ رضى الله عنه قوله ﷺ: «وهل يكب الناس فى النار على وجوههم - أو قال على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم» (٢).

فالإنسان يزرع بقوله وعمله الحسنات والسيئات ثم يحصد يوم القيامة ما زرعه، ويبين لنا رسول الله ﷺ أن الإمساك عن الكلام - إذا كان فى غير الخير -

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح، وابن ماجه والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبى وصححه الألبانى.

من علامات الإيمان بالله واليوم الآخر، فيقول ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»(١).

وقال الحسن البصرى رحمه الله: كانوا يقولون «إن لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم بشئ تدبره بقلبه ثم أمضاه، وإن لسان المنافق أمام قلبه فإذا همَّ بشئ أمضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه».

ويقول عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: «والله الذى لا إله إلا هو ليس شئ أحوجَ إلى طولِ سجنٍ من لسانى». وكان يقول: «يا لسان قل خيراً تغنم واسكت عن شرٍ تسلم من قبل أن تندم».

ويقول أبو الدرداء رضى الله عنه: «أنصف أذنيك من فيك، وإنما جُعل لك أذنان وفمٌ واحد لتسمعَ أكثرَ مما تتكلم».

٢ - التثبت من صحة الكلام قبل التحدث به:

فلا ينبغى للمسلم أن يجعل من فيه بوقًا من أبواق نشر الشائعات، والكلام الذى لا أصل له، أو ما زيد فيه فغيَّرَ معناه، يقول الله تعالى: ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا**﴾

[الإسراء: ٣٦]

وروى البخارى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أفرَى الفرى أن يُرِىَ الرجلُ عينيه ما لم ترياً».

ومعناه أن يقول بلسانه رأيت كذا وكذا دون أن يرى ذلك بعينيه.

وروى الإمام مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «كفى بالمرء كذبًا أن يُحدِّث بكل ما سمع».

وكذلك يجب على السامع أن يستوثق مما يُنقل إليه - وخصوصًا إذا كان مصدر الكلام غير ثقة - ولا يبنى على ما يسمعه أى عمل أو قول حتى يتبين.

---

(١) متفق عليه.

يقول الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ** ﴾ [الحجرات: ٦].

وكم من أمور تفاقمت وتعقدت بسبب عدم الاستيثاق مما يصل إلى الإنسان من كلام.

٣ - البساطة وعدم التكلف:

فالمسلم دائما لا يحاول أن يخلع على نفسه خلعة مزيفة مزورة فلا تراه يتصنع الفصاحة ولا يتعسف فى كلامه.

وقد روى البخارى ومسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثًا حتى تُفهم، وإذا أتى على قوم سلم عليهم .. وكان ﷺ يتكلم بكلام فصل لا هزْرَ ولا نزْرَ، ويكره الثرثرة فى الكلام، والتشدق به» أى التكلف والتصنع.

٤ - المخاطبة على قدر الفهم:

فالمسلم فى خطابه لغيره يتكلم بالأسلوب والطريقة التى يفهمها المُخَاطَب، لا التى يفهمها هو، فيخاطب الناس من واقع ظروفهم وبيئتهم وثقافتهم. فلا تراه يُشعر الذى أمامه أنه دون ثقافته، ودون مستواه الفكرى، ورُوى أن رسول الله ﷺ قال: «أمرنا معاشرَ الأنبياء أن نحدث الناس على قدر عقولهم» (١).

ويقول علىّ رضى الله عنه: «حَدِثوا الناسَ بما يعرفونهُ، أتحبون أن يُكَذَّبَ اللهُ ورسولُه»!.

وجاء عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال: «ما أنت بمُحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنةً».

٥ - إقبال المتحدث على الجلساء جميعًا:

وذلك بأن يُقبل المتحدث على مستمعيه جميعًا فيشملهم بنظراته

---

(١) رواه الديلمى بسندٍ ضعيف إلا أنه له شواهد كثيرة تجعله يرتقى إلى درجة الحسن لغيره.

وحواراته وابتساماته، فقد كان الرسول ﷺ يُحدث أصحابه فيظن كل واحد منهم أنه أقربهم إليه منزلةً، وأكثرهم حظًا من حبه ﷺ، وذلك من شدة اهتمامه بهم جميعًا، بل إن الرسول ﷺ كان يُقبل بوجهه على شر القوم ليتألفه، فقد روى الطبرانى بإسناد حسن عن عمرو بن العاص قال: «كان رسول الله ﷺ يُقبل بوجهه وحديثه على شر القوم يتألفه بذلك. وكان يُقبل بوجهه وحديثه علىَّ حتى ظننت أنى خير القوم، فقلت يا رسول الله: أنا خير أم أبو بكر؟ فقال: أبو بكر، قلت: يا رسول الله أنا خير أم عمر؟ قال: عمر، قلت: يا رسول الله أنا خير أم عثمان؟ قال: عثمان، فلما سألت رسول الله ﷺ صدعنى، فوددت أنى لم أكن سألته».

٦ - الإصغاء التام إلى المتحدث:

بمعنى أن يُنصت المستمع إنصاتًا تامًا؛ ليعى ما يسمعه.

وكان الصحابة رضوان الله عليهم إذا حدثهم رسول الله ﷺ كأن على رؤوسهم الطير من المهابة وشدة الاهتمام. وفى المقابل لذلك كان رسول الله ﷺ يُنصت إلى من يكلمه أو يسأله.

فقد روى أبو داود عن أنس رضى الله عنه قال: «ما رأيت رجلاً التقم أذن النبى ﷺ فيُنحى رأسه عنه حتى يكون الرجل هو الذى يُنحى رأسه، وما رأيت رسول الله ﷺ أخذ بيد رجل فترك يده، حتى يكون الرجل هو الذى يَدَع يده».

٧ - التحدث دون خلل ولا ملل:

وذلك بأن يتحدث المتحدث بقدر ما يعطى للكلام حقه دون اختصار يبتر الكلام بترًا ويذهب بجماله وحلاوته ومعناه، ودون استطراد يجلب الملل ويشتت الذهن ويشرد بالفكر.

فقد روى الإمام مسلم عن جابر بن سمرة رضى الله عنه قال: «كنتُ أُصلى مع النبى ﷺ فكانت صلاته قصدًا، وخطبته قصدًا» أى وسطًا وروى أحمد وأبو داود من حديث حكيم بن حزام رضى الله عنه قال: «شهدتُ مع رسول الله ﷺ

الجمعة – فقام متوكئًا على عصا – أو قوس – فحمد اللهَ وأثنى عليه، فكانت خفيفاتٍ طيباتٍ مباركاتٍ».

٨ – حفظ اللسان وصونه إلا عن خير:

فيجب على المسلم أن يحفظ لسانه ويصونه من كل الآفات.

فيحفظه من السباب لأن رسول الله ﷺ يقول: «سبابُ المسلمِ فسوقٌ وقتالهُ كفرٌ» (١).

ويحفظه من الفُحش والتفَحُش لأن الرسول ﷺ يقول: «إن الله لا يحب كل فاحشٍ مُتفحشٍ» (٢).

ولقوله «إن الله تعالى يُبغض الفاحشَ البذئ» (٣).

ولقوله «ليس المؤمنُ بالطعَّان ولا اللعَّان ولا الفاحش ولا البذئ» (٤).

وحفظ اللسان يكون طبيعة المسلم حتى مع غير المسلمين؛ فقد قيل للرسول ﷺ ادع على المشركين فقال: «إنى لم أُبعث لعانًا ولكن بُعثتُ رحمةً» (٥).

بل إن رسول الله ﷺ ينهانا عن مجرد كثرة الكلام بغير ذكر الله، فيقول: «لا تكثروا الكلامَ بغيرِ ذكرِ الله. فإن كثرةَ الكلامِ بغيرِ ذكرِ اللهِ تعالى قسوةٌ للقلب وإنَّ أبعدَ الناسِ عن اللهِ القلبُ القاسى» (٦).

ويحفظ المسلم لسانه عن عرض المسلم – خصوصًا – لأن لعرضه حُرمة وقداسة، ففى الحديث: «كلُ المسلمِ على المسلمِ حرامٌ: دمُهُ، ومالُهُ، وعِرضُهُ» (٧).

---

(١) متفق عليه.
(٢) رواه أحمد والطبرانى ورجاله ثقات.
(٣) رواه الطبرانى ورجاله ثقات.
(٤) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد.
(٥) رواه مسلم.
(٦) رواه الترمذى من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.
(٧) رواه مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

ويجب حفظ اللسان من أن ينقل كلامًا إلى ذى سلطان - لغير مصلحة شرعية - فقال رسول الله ﷺ: «لا يُبلغنى أحدٌ من أصحابى عن أحدٍ شيئًا فإنى أُحبُ أن أخرُجَ إليكم وأنا سليمُ الصدرِ» (١).

٩ - مباسطة الجلساء أثناء التحدث وبعده:

وذلك بأن يقبل المتحدث على مستمعيه بالابتسامة الرقيقة، أو الدعابة الخفيفة، وذلك لأن القلوب تمل وتسأم، فيقول علىُ رضى الله عنه: «إن القلوبَ تمل كما تمل الأبدان، فابتغوا لها طرائفَ الحكمة».

وتقول أم الدرداء - رضى الله عنها -: «كان أبو الدرداء إذا حدث حديثًا تبسم، فقلت له: لا: يقول الناس إنك أحمق - أى بسبب تبسمك فى كلامك - فقال أبو الدرداء: ما رأيت أو سمعت رسول الله ﷺ يحدث حديثًا إلا تبسم، فكان أبو الدرداء إذا حدث حديثًا تبسم اتباعًا لرسول الله ﷺ فى ذلك.

١٠ - عدم التناجى بين اثنين دون الثالث:

الإسلام يحافظ على شعور المسلم نحو أخيه، ويحرص على أن تظل أواصر المحبة هى أساس العلاقة بين المسلمين، لذلك فإن كل ما من شأنه أن يجرح الشعور أو يُوجد الريبة فى القلوب فقد نهى عنه الإسلام، وإذا تناجى اثنان دون الثالث فإما أنهما يتناجيان سرًا فى شأن من شئونه هو، أو أنهما يتناجيان سرًا بعيدًا عنه لأنه ليس ثقة وليس أهلاً لأن يشترك فى الحوار وفى كلتا الحالتين فإن ذلك يُوجد فى نفسه شيئًا تجاههما، لذا فإن رسول الله ﷺ يقول: «إذا كنتم ثلاثةً فلا يتناجى اثنان دون الآخرِ حتى تختلطوا بالناس، منْ أجلِ أنَّ ذلك يُحزنه» (٢).

وقد امتثل السلف لأمر الإسلام وحكمه فى ذلك، فها هو عبد الله بن عمر

---

(١) رواه أبو داود والترمذى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد والشيخان والترمذى وابن ماجه من حديث عبد الله بن مسعود.

كان يتحدث مع رجل فجاء آخر يريد أن يناجيه فلم يفعل حتى دعا رابعًا ليتحدث مع الآخر، ثم ناجى الطالب للمناجاة.

* * *

الدعاة وآداب الحديث

يجب أن يكون للداعية إلى الله صورة تميزه عن غيره، وروح تختلف عن غيره، وأدب فى الحديث يترفع عن الدنايا، وهذه الصورة ترسمها آيات القرآن فى قوله تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّه وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾

[فصلت: ٣٣ : ٣٦]

وأفضل ما يُعبر عما بداخلى حول هذه الآيات هو ما قاله شهيد الإسلام سيد قطب – رحمه الله – وإنى أرى أن من الخسارة أن أختصر كلامه أو أترك منه شيئًا يفقده حلاوته أو يقلل من درجة الاستفادة به.

فيقول – رحمه الله – فى قوله تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّه وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾.

إن كلمة الدعوة حينئذٍ هى أحسن كلمة تقال فى الأرض، وتصعد فى مقدمة الكلم الطيب إلى السماء. ولكن مع العمل الصالح الذى يصدق الكلمة؛ ومع الاستسلام لله الذى تتوارى معه الذات. فتُصبح الدعوة خالصة لله ليس للداعية فيها شأن إلا التبليغ. ولا على الداعية بعد ذلك أن تتلقى كلمته بالإعراض، أو بسوء الأدب أو بالتبجح فى الإنكار. فهو إنما يتقدم بالحسنة. فهو فى المقام الرفيع؛ وغيره يتقدم بالسيئة. هو فى المكان الدون.

ثم يقول – رحمه الله – فى قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ** ﴾.

وليس له أن يرد بالسيئة، فإن الحسنة لا يستوى أثرها - كما لا تستوى قيمتها - مع السيئة والصبر والتسامح، والاستعلاء على رغبة النفس فى مقابلة الشر بالشر، يرد النفوس الجامحة إلى الهدوء والثقة، فتنقلب من الخصومة إلى الولاء، ومن الجماح إلى اللين.

ثم يقول - رحمه الله - في قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.

وتصدق هذه القاعدة فى الغالبية الغالبة من الحالات وينقلب الهياج إلى وداعة. والغضب إلى سكينة. والتبجح إلى حياء، على كلمة طيبة، ونبرة هادئة وبسمة حانية فى وجه هائج غاضب متبجح مفلوت الزمام! ولو قُوبل بمثل فعله ازداد هياجًا وغضبًا وتبجحًا ومروداً. وخلع حياءه نهائيًا، وأفلت زمامه، وأخذته العزة بالإثم غير أن تلك السماحة تحتاج إلى قلب كبير يعطف ويسمح وهو قادر على الإساءة والرد وهذه القدرة ضرورية لتؤتى السماحة أثرها. حتى لا يصور الإحسان فى نفس المسئ ضعفًا. ولئن أحس أنه ضعف لم يحترمه، ولم يكن للحسنة أثرها إطلاقًا.

وهذه السماحة كذلك قاصرة على حالات الإساءة الشخصية. لا العدوان على العقيدة وفتنة المؤمنين عنها. فأما فى هذا فهو الدفع والمقاومة بكل صورة من صورها. أو الصبر حتى يقضى الله أمرًا كان مفعولاً.

وهذه الدرجة، درجة دفع السيئة بالحسنة. والسماحة التى تستعلى على دفعات الغيظ والغضب، والتوازن الذى يعرف متى تكون السماحة ومتى يكون الدفع بالحسنى .. درجة عظيمة لا يلقاها كل إنسان. فهى فى حاجة إلى الصبر وهى كذلك حظ موهوب يتفضل به الله على عباده الذين يحاولون فيستحقون: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

إنها درجة عالية إلى حد أن الرسول ﷺ وهو الذى لم يغضب لنفسه قط؛

وإذا غضب لله لم يقم بغضبه أحد. قيل له - وقيل لكل داعية فى شخصه - ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾.

فالغضب قد ينزغ، وقد يلقى فى الروع قلة الصبر على الإساءة أو ضيق الصدر عن السماحة. فالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم حينئذ وقاية، تدفع محاولاته لاستغلال الغضب، والنفاذ من ثغرته.

إن خالق هذا القلب البشرى، الذى يعرف مداخله ومساربه، ويعرف طاقته واستعداده، ويعرف من أين يدخل الشيطان إليه، يحوط قلب الداعية إلى الله من نزغات الغضب، أو نزغات الشيطان. مما يلقاه فى طريقه مما يثير غضب الحليم إنه طريق شاق. طرق السير فى مسارب النفس ودروبها وأشواكها وشعابها، حتى يبلغ الداعية منها موضع التوجيه ونقطة القياد.

* * *

سادسًا : التواصى بالحق

استخلف الله عز وجل هذه الأمة وجعل لها مقومات القيادة والريادة والخيرية فقد قال تعالى: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ولتكون هذه الأمة قوية قادرة على القيام بمهمة القوامة على كل الأمم، تقيم العدل بين الناس، فلا بد أن تكون قوية فى ذاتها، ولتكون كذلك فقد بين الله عز وجل عوامل هذه القوة فى قوله تعالى ﴿ **وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾ [العصر].

فالإيمان، والعمل الصالح، والتواصى بالحق، والتواصى بالصبر؛ هى عوامل قوة هذه الأمة.

يقول صاحب الظلال – رحمه الله –: «والتواصى بالحق ضرورة. فالنهوض بالحق عسير. والمعوقات عن الحق كثيرة: هوى النفس ومنطق المصلحة، وتصورات البيئة وطغيان الطغاة، وظلم الظلمة، وجور الجائرين .. والتواصى تذكير وتشجيع وإشعار بالقربى فى الهدف والغاية، والأخوة فى العبء والأمانة فهو مضاعفة لمجموع الاتجاهات الفردية، إذ تتفاعل معا فتتضاعف. تتضاعف بإحساس كل حارس للحق أن معه غيره يوصيه ويشجعه ويقف معه ويحبه ولا يخذله .. وهذا الدين – وهو الحق – لا يقوم إلا فى حراسة جماعة متعاونة متواصية متكافلة متضاعفة على هذا المثال.

والتواصى بالصبر كذلك ضرورة. فالقيام على الإيمان والعمل الصالح،

وحراسة الحق والعدل، من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة. ولا بد من الصبر. لا بد من الصبر على جهاد النفس، وجهاد الغير. والصبر على الأذى والمشقة. والصبر على تبجح الباطل وتنفج الشر. والصبر على طول الطريق وبطء المراحل، وانطماس المعالم، وبعد النهاية!

والتواصى بالصبر يضاعف المقدرة، بما يبعثه من إحساس بوحدة الهدف، ووحدة المتجه، وتساند الجميع، وتزودهم بالحب والعزم والإصرار .. إلى آخر ما يثيره من معانى الجماعة التى لا تعيش حقيقة الإسلام إلا فى جوها، ولا تبرز إلا من خلالها .. وإلا فهو الخسران والضياع» انتهى.

ويقول الشيخ محمد الغزالى – رحمه الله – فى كتابه: «نحو تفسير موضوعى لسور القرآن».

يقول: «إن الحق مر والصبر عليه باب للاضطهاد، والتشبث بالإيمان عند البعض رجعية محقورة ولا بد من عزيمة وجلد .. حتى يكسب المؤمنون المعركة» فإذا نظرنا فى السنة المشرفة، وجدنا أن رسول الله ﷺ جعل النصيحة – وهى باب من التواصى بالحق – هى الدين فقال ﷺ: «الدينُ النصيحة» قلنا: لمنْ؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم»(١).

والنصيحة لله: تكون بالاعتقاد السليم والعبادة الصحيحة، وبطاعته والدعوة إلى طاعته وتعظيمه – سبحانه وتعالى – وتعظيم شعائره.

والنصيحة للرسول ﷺ – بعد وفاته – بإتباعه فيما أمر به والدعوة إلى ذلك وتكون كذلك بإحياء سنته والذود عنها، ورد كيد الكائدين وحقد الحاقدين، وتكون كذلك بتقديمه ﷺ على النفس والمال والولد.

والنصيحة لكتاب الله: تكون بتعلمه وحفظه، واتباعه، والتخلق بأخلاقه، والاستقاء من معينه الصافى، والدعوة إلى تحكيمه فى سائر شئون الحياة.

---

(١) رواه مسلم عن تميم بن أوس الدارى رضى الله عنه.

والنصيحة لأئمة المسلمين: تكون بتأليف الناس عليهم وتأليفهم على الناس، وتحبيبهم إلى الرعية وتحبيب الرعية إليهم، وعدم الخروج عليهم، ووعظهم وإرشادهم وتذكيرهم بالموت والحساب والمسئولية الكاملة أمام الله عز وجل، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، والجهر بكلمة الحق عند الجائر منهم، وعدم مداهنتهم، وتكون كذلك بالجهاد معهم وعدم خذلانهم أمام الأعداء.

والنصح لعامة المسلمين: يكون بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ودعوتهم إلى اتباع منهج الله عز وجل، وتكون كذلك بإسداء المعروف لهم والنصح والتوجيه والإرشاد.

يقول جرير بن عبد الله – رضى الله عنه –: «بايعتُ رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم» (١).

يقول ابن رجب الحنبلى رحمه الله فى كتاب «جامع العلوم والحكم».

«وقد أخبر النبى ﷺ أن الدين النصيحة، فهذا يدل على أن النصيحة تشمل خصال الإسلام والإيمان والإحسان التى ذكرت فى حديث جبريل عليه السلام، وسمى ذلك كله دينا، فإن النصح لله يقتضى القيام بأداء واجباته على أكمل وجوهها وهو مقام الإحسان، فلا يكمل النصح لله بدون ذلك، ولا يتأتى ذلك بدون كمال المحبة الواجبة والمستحبة، ويستلزم ذلك الاجتهاد فى التقرب إليه بنوافل الطاعات على هذا الوجه وترك المحرمات والمكروهات على هذا الوجه أيضا». انتهى

* * *

صور من النصح لأئمة المسلمين

١ – نصح الحسن البصرى – رحمه الله – لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه: «يا أمير المؤمنين .. الإمام العادل هو قوام كل مائل من الحق، وصلاح كل

---

(١) متفق عليه.

فاسد، وقوة كل ضعيف، والإمام العادل .. يا أمير المؤمنين .. كالراعى الشفيق على ما يرعى، وكالأب الحانى على ولده، وكالقلب بين الجوارح، تصلح الجوارح بصلاحه وتفسد بفساده. والإمام العادل هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم وينقاد إلى الله ويقودهم، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله، فبدد المال وشرد العيال!!!

واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده وقلة أشياعك وأنصارك عنده، واذكر إذا بعثر ما فى القبور وحصل ما فى الصدور، فالأسرار ظاهرة، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، لا تحكم بحكم الجاهلين، ولا تسلك سبيل الظالمين، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين!!!

ولا تنظر إلى قدرتك اليوم، ولكن انظر إلى قدرتك غدا، وأنت مأسور فى حبائل الموت، وموقوف بين يدى الله، فى مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين ﴿ **وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا** ﴾ [طه: ١١١].

٢ – عمر بن عبد العزيز يشترط خمسا لمصاحبته:

قال عمر بن عبد العزيز عندما تولى الخلافة:

من أراد أن يصحبنى فليصحبنى بخمس: يدلنى عن العدل إلى مالا أهتدى إليه، ويكون لى على الخير عونا، ويبلغنى حاجة من لا يستطيع إبلاغها، ولا يغتاب عندى أحدا، ويؤدى الأمانة التى حملها منى ومن الناس.

٣ – نصح عبد الله بن عبد العزيز العمرى لهارون الرشيد:

حج هارون الرشيد ذات عام وفيما هو يسعى ثم رقى درجات الصفا، فهتف به عبد الله بن عبد العزيز العمرى فقال: يا أمير المؤمنين: انظر بطرفك إلى البيت. فنظر هارون وقال: قد فعلت. قال العمرى: كم من الناس ترى؟

قال الرشيد: ومن يحصيهم إلا الله؟!

قال العمرى: اعلم يا أمير المؤمنين أن كل واحد من هؤلاء يُسأل يوم القيامة عن نفسه وأنت وحدك مسئول عن الجميع فانظر كيف تكون، فبكى هارون.

٤ – نصح الفضيل بن عياض لهارون الرشيد:

قال الفضيل بن عياض لهارون الرشيد عندما ذهب إليه يطلب منه النصيحة والتذكرة «إن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظى ورجاء بن حيوة، فقال لهم: إنى قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا علىّ. فعد الخلافة بلاءً، وعددتها أنت وأصحابك نعمة. فقال سالم بن عبد الله: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله فصم عن الدنيا وليكن إفطارك فيها على الموت، وقال محمد بن كعب: إن أردت النجاة من عذاب الله غدا فليكن كبير المسلمين لك أبًا، وأوسطهم عندك أخًا، وأصغرهم لك ولداً. فبر أباك وارحم أخاك وتحنن على ولدك. وقال له رجاء بن حيوة: إن أردت النجاة من عذاب الله غداً فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك. وإنى لأقول لك هذا وإنى لأخاف عليك أشد الخوف يوم تزل الأقدام، فهل معك يرحمك الله مثل هؤلاء القوم من يأمرك بمثل هذا؟!.

فبكى هارون بكاءً شديداً حتى غشى عليه. فقلت: أرفق بأمير المؤمنين. فقال: يا ابن أم الربيع: قتلته أنت وأصحابك وأرفق به أنا؟ ثم أفاق: فقال زدنى. فقال يا أمير المؤمنين.. إن عباس عم رسول الله ﷺ جاءه فقال يا رسول الله.. أمرنى على إمارة. فقال رسول الله – ﷺ – «يا عباس – عم النبى ﷺ – نفس تحييها خير من إمارة لا تحصيها، إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فإن استطعت أن لا تكون أميراً فافعل» فبكى هارون الرشيد بكاءً شديداً ثم قال: زدنى يرحمك الله. قال يا حسن الوجه أنت الذى يسألك الله تعالى عن هذا الخلق يوم القيامة فإن استطعت أن تقى هذا الوجه من النار فافعل، وإياك أن تصبح وتمسى وفى قلبك غش لرعيتك فإن النبى ﷺ قال «ما من عبد يسترعيه الله على رعية يموت.. يوم.. يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه

الجنة»[1] فبكى هارون الرشيد ثم خرج من عنده فقال هارون الرشيد: هذا سيد المسلمين اليوم».

* * *

الدعاة والتواصى

النماذج السابقة نماذج من نُصح الدعاة لغيرهم، لكن الدعاة إلى الله عز وجل يحتاجون إلى التواصى بالحق والتواصى بالصبر فيما بينهم وذلك لأن مهمتهم شاقة وطريقهم طويل وعقباته كثيرة، ومنعطفاته خطيرة، فقد ينفد الزاد وتلين العزيمة وتضعف الهمّة ولا يستطيع الداعية أن يواصل الطريق وحده إذًا فلا بد من أن يكون الداعية فى بوتقة واحدة مع إخوانه الدعاة ليصهروا جميعًا فيها ويذوبوا، وساعتها يرى أحدهم عيب أخيه فيصلحه، ويراه تعثّر فيأخذ بيده ليقيل عثرته، ويراه نسى فيذكره، وتنضم المجهودات المتواضعة والإمكانيات القليلة المحدودة إلى بعضها ليباركها الله عز وجل وينفع بها.

والداعية الذى يعيش منزويًا بعيدًا عن إخوانه من الدعاة، فمن الذى يستنهضه إذا تعثّر؟ ومن الذى يذكّره إذا نسى؟ ومن الذى يعينه إذا ضعف؟ ومن الذى يقوّمه إذا هو اعوج؟ وكيف ينطبق عليه قوله تعالى: ﴿**وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾؟؟!!.

* * *

---

(١) مسلم من حديث معقل بن يسار (كتاب الإيمان - باب استحقاق الوالى الغاش لرعيته النار).

سابعا : الإخـــاء

يقول الشيخ عبد الله ناصح علوان «الأخوة : هى رابطة نفسية تورث الشعور العميق بالعاطفة والمحبة والاحترام ..، مع كل من تربطه وإياه من أواصر العقيدة الإسلامية، ووشائج الإيمان والتقوى .. فهذا الشعور الأخوى الصادق يولد فى نفس المسلم أصدق العواطف النبيلة فى اتخاذ مواقف إيجابية من التعاون، والإيثار، والرحمة، والعفو عند المقدرة ... واتخاذ مواقف سليمة من الابتعاد عن كل ما يضر الناس فى أنفسهم وأموالهم وأعراضهم والمساس بكراماتهم ... ولقد حث الإسلام على هذه الأخوة فى الله، وبين مقتضياتها وملتزماتها فى كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية» (١).

الأخوة العامة : خلق الله – عز وجل – الناس جميعا من أصل واحد ثم تشعبوا وتفرقوا وتعددت ألسنتهم، وتوجهاتهم.

يقول تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ [الحجرات: ١٣].

فأساس العلاقة بين البشر أنها قائمة على التعارف لا التنافر، على الوئام لا على الخصام، على التعاون لا على التناحر، فما دام الجميع خلق من أصل واحد، ويعيش فى ظل ألوهية إله واحد، فلم التنافر والتخاصم؟! ولم التقاتل والتنازع؟! ولا يمكن أن يعيش الناس حقيقة وحدة الأصل إلا إذا عاشوا أولا حقيقة وحدة الألوهية فأدركوا أن التقوى هى أساس التفاضل بين الناس لا الجنس ولا اللون ولا اللسان، ما دام الجميع من أصل واحد.

أخوة الإيمان (الأخوة الخاصة) :

وهى أخوة أوثق رابطة من تلك التى بين الناس فى الإنسانية عموما وذلك

---

(١) تربية الأولاد فى الإسلام جـ ١ ص ٣٥٨.

أن الإنسان مفطور على أن يحب أشباهه ونظائره، ولا شئ يجعل الإنسان يرتبط قلبيا بإنسان آخر إلا أن يعتقد عقيدته ويتصور تصوره ويدين بما يدين به.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

فهذه هى الآصرة التى تربط المؤمنين، إنها وشيجة العقيدة والإيمان التى ينضوى تحتها أتباعها، فالعقيدة والعقيدة وحدها كفيلة بأن تربط بين أتباعها برباط الأخوة لا الأخوة المزيفة المزورة! ولكن أخوة الحب ... أخوة الإيثار.

وأخوة العقيدة والإيمان هى أقوى من رابطة النسب - بدون العقيدة - وذلك لأن رابطة العقيدة لا تزول بزوال النسب ولكن رابطة النسب تزول بزوال العقيدة.

يقول القرطبى رحمه الله - فى قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أى فى الدين والحرمة لا فى النسب، ولهذا قيل: أخوة الدين أثبت من أخوة النسب، فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب». انتهى.

وتاريخ هذه العقيدة ليشهد أنها متى استقرت فى القلوب واجتمع عليها أصحابها كانت بالفعل أقوى من رابطة النسب، وقد تجلى ذلك فى غزوة بدر ومن ذلك:

١ - فقد قتل عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يومئذ خاله العاص بن هشام بن المغيرة [١].

٢ - وبعد انتهاء المعركة مر مصعب بن عمير العبدرى بأخيه أبى عزيز بن عمير الذى خاض المعركة ضد المسلمين، مر به وأحد الأنصار يشد يده، فقال مصعب للأنصارى: شد يديك به، فإن أمه ذات متاع، لعلها تفديه منك، فقال

---

(١) الرحيق المختوم لصفى الرحمن المباركفورى.

أبو عزيز لأخيه مصعب: أهذه وصاتك بى؟! فقال مصعب: إنه - أى الأنصارى - أخى دونك!!! (١).

وقد جاءت السنة المشرفة لتؤكد هذا المعنى وتبين أن المسلمين جسد واحد، إذا تألم أحد أعضائه تألمت بقية الأعضاء، مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى» (٢).

وقال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا» (٣).

* * *

الأُخوَّة من أجلِّ نعم الله

يقول تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

[آل عمران: ١٠٣]

ويذكر الله - عز وجل - العرب الذين كانوا بالأمس القريب أعداء يضرب بعضهم رقاب بعض فمنَّ الله عليهم بأن ألف بين قلوبهم وجمعهم تحت راية التوحيد، وما كان لهم أن ينسوا العداوات القديمة والدماء التى ما جفت بعد، لولا هذه النعمة التى أنقذتهم من مغبة الطريق الذى كانوا يسيرون فيه.

وتبين الآية السابقة ملمحا هاما من ملامح الأمة الإسلامية وهو أن سر قوة المسلمين لا تمكن فى عددهم، ولا تكمن فى ثرواتهم، ولكن تكمن فى تجمعهم على أساس العقيدة والإيمان، وهو الأمر الذى يعمل الأعداء على ألاَّ يكون.

---

(١) الرحيق المختوم لصفى الرحمن المباركفورى.

(٢) رواه البخارى ومسلم عن النعمان بن بشير.

(٣) رواه البخارى من حديث أبى موسى الأشعرى (كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضا).

لا يزعج أعداء الإسلام أن يلتف المسلمون حول راية العروبة - بعيدا عن الإسلام ولا يزعجهم أن يلتفوا حول قومية من القوميات، بل إن الأعداء أنفسهم يصنعون زعامات لهذه القوميات، فكل راية ينضوى تحتها عدد من المسلمين لتتناحر زعامات هذه القوميات لتكون النتيجة التى نراها على الساحة اليوم.

ولعل الكثير من المنظمات الإسلامية - أو العربية - الموجودة اليوم هى من تدبير أعداء الإسلام وذلك لتحاول أن تملئ الفراغ الذى تعانيه الأمة من جراء غياب الراية التى تجمع المسلمين تحتها وهى راية الخلافة الإسلامية.

فتكون هذه المنظمات بمثابة البدائل التى قدمها لنا الأعداء.

يقول الشيخ محمد الغزالى - رحمه الله: «إن ضعف رباط الأخوة الإسلامية نذير شر وهو ذريعة إلى تدخل غير المسلمين كى يستغلوا الأوضاع المائلة لمصالحهم الخاصة، والإسلام هو الخاسر أولاً وآخراً» (١).

* * *

من متطلبات الأخوَّة

١ - المناصرة والمؤازرة:

فالأخوة تتطلب أن ينصر الأخ أخاه ويشد من أزره، ونصره له يختلف باختلاف المواقف؛ فنصره له حينما يكون مظلوما يكون بالوقوف إلى جانبه ومساعدته فى إثبات حقه، والعمل على رفع الظلم عنه، ونصره له إذا كان ظالما يكون بكفه عن ظلمه وبأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر.

وفى الحديث: «انصر أخاك ظالما أو مظلومًا، قال أنصره مظلومًا فكيف أنصره ظالمًا؟! قال: تحجزه عن ظلمه فذلك نصره» (٢).

يقول الشيخ محمد الغزالى - رحمه الله - «وقد هان المسلمون أفرادا،

---

(١) من كتاب «نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم».

(٢) رواه البخارى ومسلم وأحمد من حديث جابر.

وهانوا أمما يوم وهت أواصر الأخوة بينهم، ونظر أحدهم إلى الأخوة نظرة استغراب وتنكر، وأصبح الأخ ينتقص أمام أخيه فيهز كتفيه ويمضى لشأنه كأن الأمر لا يعنيه (١).

٢ - المشى فى قضاء الحوائج:

فقد جاء فى الحديث «إن لله تعالى عباداً اختصهم بحوائج الناس يفزع الناس إليهم فى حوائجهم، أولئك الآمنون من عذاب الله (٢).

وقد روى عن رسول الله - ﷺ - «إن لله عند أقوام نعماً أقرها عندهم ما كانوا فى حوائج المسلمين، ما لم يملوهم، فإذا ملوهم نقلها إلى غيرهم» (٣).

٣ - خفض الجناح والتواضع:

يقول الله تعالى: ﴿ **مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** ﴾ [الفتح: ٢٩].

فإذا كانوا فيما بينهم فهى الرحمة، والتواضع، والتسامح، وإذا كانوا مع الكفار فهى الشدة والغلظة والقوة.

ويقول تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾

[المائدة: ٥٤]

فهذه صفات الجيل المنتصر الذى يحقق الله على يديه نصره.

٤ - المواساة بالمال عند الحاجة إلى ذلك:

فلا تقف الأخوة عند حد الكلمات الجوفاء والشعارات الدعائية، بل

---

(١) من كتاب «خلق المسلم».

(٢) رواه الطبرانى عن ابن عمر بإسناد حسن.

(٣) رواه الطبرانى وأحمد والحاكم بإسناد حسن عن ابن عمر.

تتحول إلى واقع عملى يتمثل فى بذل المال لسد حاجة المحتاجين، وأقل ذلك أن تعطيه من فضل مالك وأعلى ذلك أن تؤثره على نفسك.

وحكى أن رجلا أتى صديقا له، فدق عليه الباب، فقال أهلا وسهلا ما جاء بك؟ قال: على أربعمائة درهم دين، فدخل مسرعا وأخرج أربعمائة درهم ثم عاد يبكى فقالت امرأته: لم أعطيته إذ شق عليك ذلك: فقال إنما أبكى لأنى لم أتفقد حاله حتى احتاج إلى مفاتحتى.

* * *

من نواقض الأخوة

١ - الخذلان وعدم المناصرة والمؤازرة:

ففى الحديث الشريف «قال رسول الله - ﷺ - «لا تحاسدوا ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله، ولا يكذبه ولا يحقره، التقوى ها هنا، ويشير إلى صدره ثلاثة مرات، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه» (١).

ويكون هذا على مستوى الأفراد ومستوى الجماعات، فلا يخفى علينا استغاثات واستنصارات الشعوب الإسلامية فى فلسطين، وفى الشيشان، وفى البوسنة والهرسك، وفى كوسوفا، وفى كشمير، وغيرها. فهل هبت الشعوب الإسلامية لتغيث إخوان العقيدة؟! فهل قدمت الشعوب الإسلامية شيئًا تبرهن به على إخوتها للمستنصرين المستجيرين؟!! إن هذا الخذلان، وهذا التقاعس، بل والتواطؤ - أحيانًا - لهو ناقض لرابطة العقيدة.

وفى الحديث: «لا يقفن أحدكم موقفًا يضرب فيه رجل ظلمًا فإن اللعنة تنزل على من حضره حيث لم يدفعوا عنه» (٢).

---

(١) رواه مسلم عن أبى هريرة.

(٢) رواه الطبرانى.

ويقول ﷺ - : «من أُذل عنده مؤمن فلم ينصره وهو يقدر على أن ينصره أذله الله على رؤوس الأشهاد يوم القيامة» (١).

رجل واحد يضرب ظلمًا تنزل اللعنة على من حضر ذلك ولم يرفع عنه الظلم! فكيف بالألوف التى تذبح !! فكيف بالأطفال التى تقتل!! فكيف بالأعراض التى تهتك؟! كم من اللعنات تنزل؟!

٢ - ترويع المسلم وإخافته:

ألا إن المسلم الحق هو الذى يدفع عن المسلم كل ما يؤذيه، فى نفسه أو ماله أو عرضه. أما أن يزعم الذين يروعون المسلمين ويخيفونهم بأنهم لا زالوا إخوانًا للمسلمين! هيهات!! وفى الحديث الشريف «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يُروِّعنَّ مسلما» (٢) وأيضًا «من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه حتى ينتهى وإن كان أخاه لأبيه وأمه» (٣).

ويقول: «من حمل علينا السلاح فليس منا» (٤).

* * *

الدعاة إلى الله وحق الأخوة

إذا كانت هذه حقوق الأخوة بين المؤمنين عمومًا فإن الدعاة إلى الله - عز وجل - يحتاجون إلى تدعيم هذه الحقوق بصورة أعمق وأقوى، إذ أن وعورة الطريق، وكثرة العقبات، كل ذلك يحتاج إلى أن يكون الأخ بجانب أخيه بنفسه وماله ووقته وعقله، إنه الامتزاج التام بين أرواح الدعاة، التكامل الكامل بين الدعاة، التكافل الكافل لحاجات الدعاة، التعاون المعين على أعباء الدعوة الجسام.

---

(١) رواه أحمد فى مسنده وقال السيوطى فى الجامع الصغير إسناده حسن.

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير وقال السيوطى إسناده حسن.

(٣) رواه مسلم فى الأدب، ورواه الترمذى فى الفتن، كلاهما عن أبى هريرة.

(٤) رواه أحمد والبخارى والنسائى وابن ماجة عن ابن عمر ورواه مسلم عن أبى هريرة.

قال على بن الحسن - رضى الله عنه - لرجل: هل يُدخِلُ أحدكم يده فى كم أخيه أو كيسه فيأخذ منه ما يريد بغير إذنه؟ قال: لا. قال: فلستم بإخوان!

وقضى ابن شبرمة حاجة كبيرة لأحد إخوانه، فجاءه بهدية. فقال ابن شبرمة: ما هذا؟ قال له أخوه: لما أسديته إلىَّ، قال له: خذ مالك عافاك الله إذا سألت أخاك حاجة فلم يُجهِد نفسه فى قضائها فتوضأ للصلاة وكبِّر عليه أربع تكبيرات وعده فى الموتى!!!

ألا إن المهمة التى تنتظر الدعاة مهمة شاقة لا يصلح لها صف مهلهل!! ولا يصلح لها صف لا يسوده الإيثار فضلاً عن نقائه من أهل الأثرة! لا بد أن يعلم الفرد أنه وحده لا شئ؛ وبإخوانه كل شئ؛ لا بد أن يعى الداعية جيداً أنه إن لم يكن بإخوانه فلن يكون بغيرهم وهم إن لم يكونوا به فسيكونون بغيره، وليعلم الدعاة جميعاً أن أدنى مراتب الأخوة سلامة الصدر، وأعلاها الإيثار.

* * *

ثامنا : الإيثـــــار

الإيثار معناه : أن يقدم الإنسان حاجة غيره على حاجته، رغبةً فى الأجر والثواب، فتراه يجود بماله لأخيه مع حاجته إليه، ويجود بوقته لقضاء حاجة أخيه، مع احتياجه الشديد إليه.

يقول الله تعالى – واصفًا عباده الأبرار – ﴿ **يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا** ﴾ [الإنسان: ٧ – ١٠].

يقول صاحب الظلال – رحمه الله – « وهى صورة وضيئة شفافة لقلوب مخلصة جادة عازمة على الوفاء لله بتكاليف العقيدة، مع رحمة ندية بعباده الضعاف، وإيثاراً على النفس، وتحرج وخشية لله، ورغبة فى رضاه، وإشفاق من عذابه تبعثه التقوى والجد فى تصور الواجب الثقيل ».

ويقول فى قوله تعالى: ﴿ **وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا** ﴾.

وهى تصور شعور البر والعطف والخير ممثلا فى إطعام الطعام، مع حبه بسبب الحاجة إليه. فمثل هذه القلوب لا يقال عنها إنها تحب الطعام الذى تطعمه للضعاف المحاويج على اختلاف أنواعهم إلا أن تكون فى حاجة هى إلى هذا الطعام، ولكنها تؤثر به المحاويج ».

ويقول الله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [الحشر: ٩].

فهذه الآية الكريمة المباركة ترسم صورة صادقة للأنصار الذين تبوءوا المدينة قبل المهاجرين، كما تبوءوا فيها الإيمان، فاتخذوه منزلاً لهم وداراً!

هؤلاء الأنصار – في مجموعهم – يمثلون صفحة مشرقة في التاريخ بلغت من إشراقها وعظمتها حداً لولا أن القرآن أخبرنا بها، وصحيح السنة؛ لقلنا إن هذا من نسج الخيال !! فكما تروى لنا كتب السيرة أن حب الأنصار لإخوانهم المهاجرين بلغ حداً عظيماً، إذ ما نزل مهاجرى على أنصارى إلى بقرعة! وذلك لأن عدد الراغبين في الإيواء، المتزاحمين عليه أكثر من عدد المهاجرين!

ولولا أن القرآن نزل فزكى هؤلاء وأخبرنا عن دواخلهم الطاهرة، لقلنا بأن القوم يريدون أن يتجملوا ليشهد لهم الناس بالكرم والسخاء!

أو لقلنا إنهم يريدون أن يسجل التاريخ لهم مآثرهم!

ومن المواقف التي يقف الإنسان أمامها مشدوهاً: موقف سعد بن الربيع الأنصارى مع أخيه – في الله – عبد الرحمن بن عوف المهاجرى، فقد روى البخارى أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله – ﷺ – بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، فقال لعبد الرحمن: إني أكثر الأنصار مالاً فأقسم ما لي نصفين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك فسمها لي، أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها، قال: بارك الله لك في أهلك ومالك، وأين سوقكم؟ فدلوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن، ثم تابع الغدو، ثم جاء يوماً وبه أثر صفرة، فقال النبي ﷺ: مهيم؟ قال تزوجتُ قال: كم سُقتَ إليها؟ قال نواة من ذهب» (١).

فسعد يعرض على أخيه المال والزوجة!!

المال الذى يتقاتل عليه الأخوة أبناء الصلب الواحد، والبطن الواحد والثدى

---

(١) صحيح البخارى. باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار.

الواحد!!! يعرضه سعد على أخيه عبد الرحمن! والزوجة التى ربما تقاتل الأخوان للتنافس عليها! يتنازل عنها سعد لأخيه عبد الرحمن!

ولا تجد أعجب من موقف سعد إلا موقف أخيه عبد الرحمن الذى ضرب المثل الأعلى فى العفة والقناعة، فلا يسيل لعابه إلى المال ولا إلى الزوجة ولكن يقول لأخيه: بارك الله لك فى أهلك ومالك.

فإذا كان الأنصار ضربوا المثل فى الإيثار فإن المهاجرين ضربوا المثل فى العفة والقناعة، أليسوا جميعًا تربية محمد - ﷺ -؟! أليس المهاجرون هم الذين تركوا أموالهم وديارهم وخرجوا ينصرون الله ورسوله؟! أليس الأنصار هم الذين قطعوا كل الوشائج ووصلوا رابطة العقيدة بينهم وبين إخوانهم المهاجرين؟!

فإذا كانت هذه بعض النماذج من الإيثار فإنه من الممكن أن تتكرر هذه النماذج إذا استقت من نفس المنبع ونهلت من نفس المنهل الذى استقى منه ونهل أولئك الأنصار، فالمنهج موجود ويستطيع أن يُخرِّج الكثير من نماذج الإيثار.

* * *

صور من الإيثار

١ - جاء رجل إلى النبى - ﷺ - فقال: يا رسول الله: إنى مجهود - أى شديد الجوع - فأرسلَ إلى بيت إحدى زوجاته يسألها: هل عندك شئ من الطعام؟ فقالت: لا. والذى بعثك بالحق، ما عندى إلا ماء. فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: من يضيف هذا الليلة يرحمه الله؟ فقام رجل من الأنصار، وذهب به إلى بيته ودخل على زوجته فقال: «أكرمى ضيف رسول الله» وفى رواية: أنه سألها هل عندكِ شئ من الطعام؟

فقالت ما عندى إلا قوت صبيانى.

فقال عللِيهم، فإذا أرادوا الطعام فنوميهم! فإذا كان الليل، فضعى الطعام

بين يدى الضيف! ثم قومى إلى السراج فأصلحيه، ثم أطفئيه! وأريه أنا نأكل حتى يأكل الضيف ويشبع.

ففعلت ما أشار به زوجها، فنومت أطفالها على الجوع، ووضعت الطعام بين يدى الضيف؟ ثم قامت إلى السراج فأطفأته، وهى تظهر أنها تريد إصلاحه وجلست مع زوجها، وضيفها على الطعام.

وتظاهرا أنهما يأكلان - ولا يأكلان - حتى أكل الضيف وشبع وحمد الله تعالى فنزل جبريل عليه السلام، وأخبر النبى - ﷺ - بما فعل الأنصارى وزوجته مع الضيف! ولما كان الصباح التفت النبى - ﷺ - إلى الأنصارى وقال له: «إن الله تعالى عجب من صنيعكم بضيفكما البارحة [1] (أى رضى عنكما كل الرضا).

٢ - وفى معركة اليرموك قدم الماء لعكرمة وأصحابه فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه وهو جريح مثقل، أحوج ما يكون إلى الماء، فيرده الثانى إلى الثالث، فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم، ولم يشربه أحد منهم «رضى الله عنهم» [2].

٣ - قال ابن عمر - رضى الله عنهما - أهدى لرجل من أصحاب رسول الله - ﷺ - رأس شاه فقال: أخى فلان أحوج إليه فبعث به إليه، فبعثه ذلك إلى آخر، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى رجع إلى الأول بعد أن تداول سبعة [3].

٤ - بعث معاوية بن أبى سفيان بثمانين ألف درهم إلى عائشة، وكانت صائمة، وعليها ثوب خَلِق فوزعت هذا المال من ساعتها على الفقراء والمساكين

---

(١) رواه البخارى ومسلم والنسائى (تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٣٨).
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٣٨.
(٣) إحياء علوم الدين جـ ٢ ص ١٧٢.

ولم تبق منه شيئًا . فقالت لها خادمتها : يا أم المؤمنين، أما استطعت أنا تشترى لنا لحمًا بدرهم تفطرين عليه : فقالت يا بنية : لو ذكرتيني لفعلت » [1] .

٥ – عوتب عبد الله بن جعفر – رحمه الله – لكثرة عطائه وسخائه فقال : إن الله عودني عادة، وعودت خلقه عادة فأخاف أن أقطع العادة فتنقطع العادة .

* * *

قمـــــة الإيثـــــار

وأعلى قمة للإيثار أن يؤثر العبد رضى الله على رضى غيره، وإن عظمت فيه المحن واشتد فيه البلاء .

يقول ابن القيم – رحمه الله – « فمن آثر رضى الله فلا بد أن يعاديه رذالة العالم وسقطهم، وجهالهم وأهل البدع والفجور منهم، وأهل الرياسات الباطلة، وكل من يخالف هديه هديه فما يقدم على معاداة هؤلاء إلا طالب الرجوع إلى الله » [2] .

* * *

صور من الإيثار المذموم

هذه الصور ليست فى حقيقتها إيثاراً بالمعنى الصحيح ولكنها إيثار فى نظر أصحابها . ومن ذلك :

١ – أن يؤثر الإنسان غيره بماله كله، ويقعد كلاً مضطراً، مستشرفًا للناس أو سائلاً .

٢ – أن يؤثر الإنسان غيره بما يقطع عليه طريقه للوصول إلى الله، مثل أن يؤثر جليسه على ذكره لله، وتوجهه وجمعيته على الله، فيكون قد آثره على الله، وآثر بنصيبه من الله ما لا يستحق الإيثار .

(١ ، ٢) تهذيب مدارج السالكين .

٣ – الإيثار بما يفسد على المؤثر وقته، أو يؤثر بأمر قد جمع قلبه وهمَّه على الله فيفرق قلبه عليه بعد جمعيته ويشتت خاطره .

٤ – الإيثار بالقُرب : كمن يؤثر بالصف الأول – فى الصلاة – غيره ويتأخر هو، أو يؤثر غيره بقربه من الإمام يوم الجمعة، أو يؤثر غيره بالأذان والإقامة .

* * *

إيثـــار الدعاة إلى الله – عز وجل –

وإيثار الدعاة إلى الله – عز وجل – يتطلب منهم :

١ – التجرد الكامل لدعوة الله تبارك وتعالى، وبذل النفس والنفيس فى سبيل تبليغ دعوة الله – عز وجل – إيثاراً لما عند الله، وإيثاراً لرضى الله على رضى غيره، فإذا كان الداعية كذلك فلا بد من المِحَن التى تقابله وتعترض طريق إيثاره لله – عز وجل – .

يقول ابن القيم – رحمه الله – (والمحنة تعظم على صاحبِ هذا الإيثار ليتأخر من ليس من أهله، فإذا احتملها وتقدم، انقلبت تلك المحن منحاً . وصارت تلك المؤن عوناً . وهذا معروف بالتجربة الخاصة والعامة، فإنه ما آثر عبد مرضاة الله – عز وجل – على مرضاة الخلق، وتحمل ثقل ذلك ومؤنته، وصبر على محنته إلا أنشأ الله من تلك المحنة والمؤنة نعمة ومسرة، ومعونة بقدر ما تحمل من مرضاته . فانقلبت مخاوفه أمناً، ومظانّ عطبه نجاة، وتعبه راحة، ومؤنته معونة، وبليَّته نعمة، ومحنته منحة، وسخطه رضى، فيا خيبة المتخلفين، ويا ذلة المتهيبين) [١] .

٢ – التفانى فى حماية القيادات الدعوية، إيثارا لسلامتها على سلامة الفرد، إذ أن فى سلامة القيادة الدعوية تبقى الدعوة وتنتشر، وهذا ينبثق من التجرد الكامل للدعوة . ومن هذه الصور :

---

(١) تهذيب مدارج السالكين .

(أ) موقف على بن أبى طالب ليلة الهجرة إذ نام مكان الرسول – ﷺ – مضحيا بنفسه، مؤثراً لحياة رسول الله – ﷺ –، لأن فى بقاء الرسول بقاء للدعوة.

(ب) خرجت امرأة من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد مع رسول الله – ﷺ – فقالت ما فعل رسول الله – ﷺ –؟

قالوا خيرا هو بحمد الله كما تحبين! قالت: أرونيه حتى أنظر إليه فلما رأته قالت: كل مصيبة بعده جلل» (١).

(جـ) رفع المشركون خبيبا – رضى الله عنه – على الخشبة ونادوه يناشدونه: أتحب أن محمدا مكانك؟ قال: لا والله العظيم ما أحب أن يفدينى بشوكة يشاكها فى قدمه فضحكوا منه» (٢).

(د) ترس أبو دجانة يوم أحد على رسول الله – ﷺ – بظهره والنبل يقع فيه وهو لا يتحرك» (٣).

٣ – أن تسود روح الإيثار صف الدعاة إلى الله – عز وجل – فالإيثار أعلى درجات الحب، وهذه الدرجة العليا من الحب وإن كانت مندوبة بين المسلمين عموما فإنها يشتد ندبها بين الدعاة إلى الله – عز وجل –، إذ أنهم معرضون للشدائد والمحن فإذا ما كانت روح الإيثار هى السائدة فى هذا الصف، فإن الأفراد يتسابقون فى أيهم يجوع ليشبع أخوه! وأيهم يتعب ليستريح أخوه! وأيهم يسهر لينام أخوه! وأما إذا كانت الأثرة والأنانية سائدة بين أفراد هذا الصف فإنه ينهار عند أول شدة، إذ يتنازع الأفراد فيما بينهم على أيهم يأكل ليجوع الآخر! وأيهم يستريح ليتعب الآخر! وأيهم ينام ليسهر الآخر!!

ومن هنا فقد تحتم على الدعوة أن تربى أبناءها على الإيثار، ونبذ الأثرة.

---

(١) رواه ابن إسحاق، ورواه البيهقى مرسلاً.

(٢) البداية والنهاية جـ ٤ ص ٦٣.

(٣) زاد المعاد جـ ٢ ص ١٣٠.

تاسعا : الاتحـــــاد

الخطاب الإلهى موجه إلى الجماعة لا إلى الأفراد :

يقول الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ** ﴾ [الحج : ٧٧ – ٧٨] .

ففى هاتين الآيتين يوجه الله – عز وجل – الخطاب للأمة المؤمنة فيأمرها بالركوع والسجود والعبادة وفعل الخير ليرجوا الفلاح، ويكون ذلك استعدادا وتهيئة جماعية للأمة لتقوم بتكاليفها العظام المتمثلة فى الجهاد – وهو جماعى لإقامة العدل بين الأمم، لأن الله عز وجل جعل الرسول شاهدا عليهم ليقرر لهم المعايير والموازين التى تصلحهم ثم يقررون هم بدورهم المعايير والموازين التى تحكم الأمم لتضمن الأمن والأمان والعدل والسلام بين الناس، ومن ثم فهو عبء ثقيل يحتاج إلى تضافر الجهود .

ويقول تعالى : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ* اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ** ﴾ [الفاتحة : ٥ – ٧] .

فلا يتوجه العبد إلى ربه بصيغة المفرد، حتى ولو كان يصلى وحده – بل يتحدث بلسان الجماعة، فنراه ينوب عن الجماعة فى التوجه إلى الله بالعبودية والاستعانة، ويطلب من الله عز وجل الهداية للجماعة كلها .

والمتأمل جيدا فى القرآن والسنة يجد أنهما يغرسان فى نفس المسلم الشعور بالجماعة فى كل أحكامه وفى كل تعاليمه . ففى الصلاة شرعت الجماعة، وشدد فى إقامتها .

فقد روى عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – «إن الله تبارك وتعالى ليعجب من الصلاة فى الجمع» (١).

وعن أبى الدرداء – رضى الله عنه – قال: سمعت رسول الله – ﷺ – يقول: «ما من ثلاثة فى قرية ولا بدو، لا تقام فيهم الصلاة، إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليكم بالجماعة، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية» (٢).

وكذلك شرعت الجمعة، والعيدان، والأذان والمساجد.

فعن ابن مسعود – رضى الله عنه –: أن النبى – ﷺ – قال لقوم يتخلفون عن الجمعة «لقد هممت أن آمر رجلا يصلى بالناس ثم أحرق على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم» (٣).

وحتى فى صلاة الجماعة – فى المسجد – يكره للمسلم أن يصلى وحده خلف الصف، لما فى ذلك من الظهور بصورة الانفراد أو الشذوذ عن الجماعة ولو من جهة المظهر الشكلى فقط..

فقد روى وابصة بن معبد – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – رأى رجلا يصلى خلف الصف وحده فأمره أن يعيد الصلاة» (٤).

والمقصود من كل ذلك هو إظهار حرص الإسلام على الوحدة والجماعة شكلا ومضمونا، جوهرا ومظهرا.

وفى الصيام لا يصوم المسلم وحده ولا يفطر وحده، بل يصوم يوم يصوم الناس ويفطر يوم يفطر الناس، تأكيدا على روح الجماعة.

---

(١) رواه أحمد عن عمر بن الخطاب – مرفوعا – بإسناد حسن، وكذلك الطبرانى من حديث بن عمر – مرفوعا – بإسناد حسن، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب.

(٢) رواه أحمد، وأبو داود، والنسائى، وابن خزيمة، وابن حبان، فى صحيحيهما والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب.

(٣) رواه مسلم. (٤) رواه أبو داود والترمذى وحسنه، وابن ماجة.

فعن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله - ﷺ - «الفطر يوم يفطر الناس والأضحى يوم يضحى الناس» (١).

وعن أبى هريرة رضى الله عنه: أن النبى - ﷺ - قال: صومكم يوم تصومون، وفطركم يوم تفطرون، وأضحاكم يوم تضحون» (٢).

وفى الوقوف بعرفه لا يقف الحاج وحده ولا يصح ذلك منه - بل يقف الحجاج جميعًا. وتأكيدًا لكل ذلك يقول الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ * فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [المؤمنون: ٥١ - ٥٤].

فهذا خطاب من الله - تعالى - إلى كل الرسل وكأنهم موجودون فى مكان واحد وفى زمان واحد - على تباعد الزمان والمكان - فيأمرهم الله - عز وجل - بالعمل الصالح في صورة الجماعة رغم أنهم لم يجتمعوا!!.

ثم تأكيد على وحدة الأمة ووحدة الربوبية، فتفرق الناس بعد الرسل أحزابًا وشيعًا ففرح كل حزب بما لديهم من غى وضلال !! والمقصود بالأمة فى الآية السابقة هى الدين.

* * *

اتباع الهوى ومتابعة البغى هو سبب التفرق

قلنا بأن الرسل جميعًا جاءوا بدين واحد وأمروا الناس باتباعه فاتبع الكثير من الناس أهواءهم.

يقول الله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا

---

(١) رواه الترمذى وقال السيوطى فى الجامع الصغير «صحيح».

(٢) أخرجه أبو داود وابن ماجة والترمذى وصححه.

إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ * وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾

[الشورى: ١٣ - ١٤]

ما دام شرع الله الذى شرعه لنا هو نفسه الذى وصى به نوحًا، وهو نفسه الذى وصى به إبراهيم وموسى وعيسى، فلمَ الاختلاف إذًا؟! ولِمَ يتقاتل أتباع موسى وأتباع عيسى؟! ولم يتقاتل أتباع عيسى مع أتباع محمد ﷺ؟! ولم تتقاتل الفرق داخل أتباع النبى الواحد؟! ما دفعهم إلى ذلك إلا أنهم كبر عليهم أن يتجردوا من الهوى والغى، فليس الجهل هو الذى دفعهم لذلك وليس أى شئ إلا الهوى والبغى.

يقول صاحب الظلال - رحمه الله - «فهم لم يتفرقوا عن جهل؟ ولم يتفرقوا لأنهم لا يعرفون الأصل الواحد الذى يربطهم، ويربط رسلهم ومعتقداتهم. إنما تفرقوا بعد ما جاءهم العلم. تفرقوا بغيا بينهم وحسدا وظلما للحقيقة ولأنفسهم سواء. تفرقوا تحت تأثير الأهواء الجائرة، والشهوات الباغية، تفرقوا غير مستندين إلى سبب من العقيدة الصحيحة والمنهج القويم. ولو أخلصوا لعقيدتهم، واتبعوا منهجهم ما تفرقوا، بل إن الله - عز وجل - يقول: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٣] أى وما اختلف فى الكتاب المنير المنزل لإزالة الاختلاف والتفرق فى الدين إلا الذين أتاهم الله الكتاب، فهم قد عكسوا الأمر حيث جعلوا ما أنزل لإزالة الاختلاف والتفرق سببا فى ترسيخ هذا الاختلاف واستحكامه.

* * *

الاختلاف فى الدين انفصال عنه

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

فهى البراءة الكاملة، والانفصال التام بين الذين فرقوا دينهم واختلفوا فيه وبين محمد - ﷺ - رمز الدين الذى ارتضاه الله للناس ولن يقبل منهم غيره.

ويقول تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٣ - ١٠٥].

فيبين الله سبحانه وتعالى أن الاعتصام بحبل الله - القرآن والسنة - هو العصمة من الزلل والأمان من الاختلاف والتفرق، وأما فى حالة التخلى عن حبل الله - عز وجل - فيكون التقاتل والتطاحن كما قال - ﷺ -: «لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»(١).

يقول الدكتور يوسف القرضاوى - حفظه الله -:

وهذا يدلنا على أن الذى يوحِّد الأمة ويجمع شتاتها وجود منهج موحَّد تعتصم به، وترجع إليه، وهو هنا حبل الله: الإسلام والقرآن، ووجود رسالة مشتركة تشتغل بها وتجعلها أكبر همها، وهو هنا الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أما إذا قعدت الأمة عن الرسالة، أو فقدت المنهج، فإن السبل ستتفرق بها عن يمين وشمال، والشياطين ستتجاذبها من شرق وغرب وهو

---

(١) رواه البخارى ومسلم والنسائى وابن ماجة من حديث جرير بن عبد الله.

ما حذر منه القرآن بقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] (١).

وحرصًا على وحدة الأمة وسلامتها من الاختلاف والتفرق؛ يحذرنا القرآن من دسائس غير المسلمين الذين يكيدون لهم ليفرقوا كلمتهم، ويمزِّقوا وحدتهم، كما فعل ذلك اليهود فى الإيقاع بين الأوس والخزرج بعد أن جمعهم الله على الإسلام، فيقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

* * *

الخروج عن إجماع الأمـــة

متى استقرت أحوال الأمة، واجتمعت كلمتها - على الحق - وتوحَّدَ صفها وتوجهت نحو أداء مهمتها والقيام برسالتها، فإن خروج فئة أو حتى خروج فرد من الأمة على هذا الإجماع يعد تعطيلاً للأمة وتضييعًا لجهدها وجهادها وإيجادًا للذريعة التى يتذرع بها الأعداء للكيد والدسيسة بين صفوف الأمة، ومن ثَمَّ فقد شدد القرآن على ذلك فقال عز من قائل: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

ويقول - ﷺ -: «من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية» (٢).

وقال: «من خرج على أمتى يضرب برها وفاجرها لا يتحاشى من مؤمنها ولا يفى بعهد ذى عهدها فليس منى ولست منه» (٣).

---

(١) من كتاب (ملامح المجتمع المسلم).
(٢) رواه البخارى.
(٣) رواه مسلم.

وليس المقصود بالخروج على الجماعة هو مجرد الاختلاف فى الرأى فى المسائل الاجتهادية أو القضايا الطارئة على الأمة، ولكنه الخروج الذى يجعل الأمة تنقسم إلى أحزاب وفِرَق يضرب بعضها بعضاً فتضيع مقدَّرات الأمة. وهذا ما يبينه الحديث السابق.

* * *

التنازع يؤدى إلى الفشل والهزيمة

يقول الشيخ محمد الغزالى - رحمه الله -:

«إن الشقاق يضعف الأمة القوية، ويميت الأمم الضعيفة .. ولذلك جعل الله أول عظة للمسلمين - بعد ما انتصروا فى معركة بدر - أن يوحِّدوا صفوفهم، ويجمعوا أمرهم. لما تطلعت النفوس الضعيفة للغنائم، تشتهى حظها وتتنافس على اقتسامها، نزل قوله تعالى: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾

[الأنفال: ١]

ثم أفهمهم أن الاتحاد فى العمل هو طريق النصر المحقق والقوة المرغوبة ﴿ **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** ﴾ [الأنفال: ٤٦] (١).

ولعل سبب الشدة التى لحقت بالمسلمين فى أُحد هو اختلاف الرماة على أميرهم عبد الله بن جبير، ومخالفتهم بذلك تعليمات الرسول - ﷺ - وذلك أن التنازع يجعل كل فريق يتبع هواه، ويتأثر وينتصر لرأيه ولشخصه فتتشتت الجهود، وتتفرق القلوب، ويحكم الهوى فيضيع النصر.

* * *

---

(١) من كتاب (خلق المسلم).

الخلاف فى الفروع لا يوجب الشقاق والتناحر

كلامنا السابق خاص بالاختلاف المذموم وهو الاختلاف فى الأصول والعقائد، أما الخلاف فى المسائل الفرعية، التى تخضع لإعمال العقول، فمن الطبيعى أن يختلف فيها المجتهدون، إذ أن العقول تتفاوت، والظروف والأحوال تتباين، ومن ثَمَّ فمن اجتهد - وكان من أهل الاجتهاد - فأصاب فله أجران، أجر على اجتهاده، وأجر على إصابته، ومن اجتهد فأخطأ، فله أجر واحد وهو أجر اجتهاده، وذلك لأنه استفرغ طاقته وعمل بكل إمكاناته ولم يتبع الهوى.

وكما جاء فى الحديث «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإن اجتهد فأخطأ فله أجر» (١).

وقد كان الصحابة - رضوان الله عليهم - يختلفون فى فهم النصوص الشرعية الظنية الدلالة، ومن ذلك موقفهم فى غزوة بنى قريظة، فبعد أن رجع النبى - ﷺ - من غزوة الخندق ووضع السلاح واغتسل، أتاه جبريل عليه السلام فقال «قد وضعت السلاح؟ والله ما وضعناه، فاخرج إليهم قال: فإلى أين؟ قال: ههنا، وأشار إلى بنى قريظة، فخرج النبى - ﷺ - إليهم» (٢).

ونادى - ﷺ - فى المسلمين: «ألا لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة» فسار الناس، فأدرك بعضهم العصر فى الطريق، فقال بعضهم لا نصلى حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلى، ولم يُرِدْ منا ذلك فذكروا ذلك للنبى - ﷺ - فلم يُعنّف أحداً منهم (٣).

يقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى «وفى اختلاف الصحابة فى فهم كلام رسول الله - ﷺ -: «ألا لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة» على النحو السابق، مع عدم تعنيف النبى - ﷺ - أحداً منهم أو معاتبته، دلالة هامة

---

(١) رواه البخارى.

(٢) متفق عليه وهذا لفظ البخارى.

(٣) رواه البخارى.

على أصل من الأصول الشرعية الكبرى، وهو تقرير مبدأ الخلاف فى مسائل الفروع، واعتبار كل من المتخالفين معذوراً ومثاباً، سواء قلنا أن المصيب واحد أو متعدد كما أن فيه تقريراً لمبدأ الاجتهاد فى استنباط الأحكام الشرعية، وفيه ما يدل على أن استئصال الخلاف فى مسائل الفروع التى تتبع من دلالات ظنية، أمر لا يمكن أن يتصور أو يتم (١).

قلت: لو أراد الله – عز وجل – من الناس الإتفاق فى جميع الفروع لجعل لكل الأدلة قطعية الدلالة !! ولكن حكمة الله – تعالى – اقتضت أن تكون الأغلبية الساحقة من الأدلة الشرعية (الكتاب أو السنة) ظنيه الدلالة (٢).

وذلك حتى تتحقق صفة المرونة للتشريع الإسلامى والتى تؤهله للصلاحية لكل زمان ومكان. ونخلص مما سبق إلى أن الله عز وجل جعل بعض الأحكام ذات وجه واحد وبعض الأحكام ذات أوجه متعددة؛ فالأحكام التى ذات وجه واحد لا يقبل الله إلا هذا الوجه، وذلك مثل آيات المواريث، فهى قطعية الثبوت – كسائر القرآن – وقطعية الدلالة؛ إذ لا مصلحة – للناس فى أن تكون هذه الآيات ظنية الدلالة وأما عن الأحكام المتعددة الأوجه، فيقبل الله – عز وجل – منها أى وجه وذلك تيسيراً على الأمة ودفعاً للحرج عنها.

يقول الدكتور يوسف القرضاوى – حفظه الله –: «وقد عرفنا فى عصرنا أناساً يجهدون أنفسهم، ويجهدون الناس معهم، ظانين أنهم قادرون على أن يصبوا الناس فى قالب واحد يصنعونه هم لهم، وأن يجتمع الناس على رأى واحد، يمشون فيه وراءهم، وفق ما فهموه من النصوص الشرعية، وبذلك تنقرض المذاهب، ويرتفع الخلاف، ويلتقى الجميع على كلمة سواء!!

---

(١) من كتاب (فقه السيرة النبوية).

(٢) ظنى الدلالة: أى أنه يحتمل أكثر من تأويل تبعاً لقواعد اللغة العربية وأوجه الإعراب، وتبعاً للعرف والمصلحة وذلك مثل قوله تعالى ﴿ **والمطلقات يتربصن بأنفسهم ثلاثة قروء** ﴾ فمن العرب من يسمى الحيض قرءاً ومنهم من يسمى الطهر قرءاً ومنهم من يجمعهما جميعا فيسمى الطهر مع الحيض قرءاً.

ونسى هؤلاء أن فهمهم للنصوص ليس أكثر من رأى يحتمل الخطأ، كما يحتمل الصواب، إذ لم تضمن العصمة لعالم فيما ذهب إليه، وإن جمع شروط الاجتهاد كلها، كل ما ضمن له هو الأجر على اجتهاده، أصاب أم أخطأ ولهذا لم يزد هؤلاء على أن أضافوا إلى المذاهب المدونة مذهبًا جديداً! ومن الغريب أن هؤلاء ينكرون على أتباع المذاهب تقليدهم لأئمتها، على حين يطلبون من جماهير الناس أن يقلدوهم ويتبعوهم» (١).

* * *

اتحاد الدعاة إلى الله - عز وجل -

العمل الجماعى واجب يفرضه الدين:

١ - يقول الله تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾ [آل عمران: ١١٠].

٢ - ويقول: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فالخطاب فى الآية الأولى موجه إلى الأمة جميعًا بصفتها الجماعة التى اختارها الله - عز وجل - وفضلها على سائر الأمم بما لها من خصائص الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان بالله.

وفى الآية الثانية يُوجب الله - عز وجل - الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على فئة من الأمة - على سبيل فرض الكفاية.

٣ - ويقول تعالى: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ**﴾ [المائدة: ٥٥ - ٥٦].

---

(١) من كتاب «الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف».

وهل الموالاة إلا الحب والمناصرة وربط المصير بالمصير؟! وهل يمكن ذلك إلا أن يكون داخل الجماعة التى تمثل حزب الله فى الأرض؟!

٤ – ويقول: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

وهذه الآية تبين أن سبيل الدعوة هو سبيل الرسول والذين اتبعوه بإحسان؛ وهل كان الرسول إلا مؤسس جماعة تقوم بواجب الدعوة إلى الله؟!

٥ – ويقول تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

فهذه الصفات، من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله هى؛ الصفات التى تفرق بين جماعة المؤمنين وجماعة المنافقين؛ لأن الله تعالى يقول فى صفات المنافقين: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

إذًا فهناك حزبان: حزب للجماعة المؤمنة يضمهم جميعًا بما لهم من مواصفات، وحزب للمنافقين يضمهم بما لهم من مواصفات، فلا بد للمسلم أن يكون فى حزب الجماعة المؤمنة، مواليًا لها ومناصرًا ورابطًا مصيره بمصيرها.

أما أن يكون المسلم على الحياد بين الحزبين فلا!!

يقول الإمام ابن القيم – رحمه الله – للذين يكتفون بأمور العبادة الفردية ويتهربون من التكاليف الجماعية والتى من أهمها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يقول عنهم «هؤلاء فى نظر العلماء من أقل الناس دينًا، فأى دين وأى خير فيمن يرى محارم الله تُنتهك. وحدوده تُضاع ودينه يُترك، وسنة رسوله – ﷺ – يُرغب عنها، وهو بارد القلب ساكن اللسان؟ شيطان أخرس. وهل بليَّة الدين إلا

من هؤلاء الذين سلمت لهم مآكلهم، ورياساتهم، فلا مبالاة بما يجرى على الدين وهؤلاء مع سقوطهم من عين الله ومقت الله لهم، قوبلوا فى الدنيا بأعظم بليّه، وهم لا يشعرون وهو موت القلوب، فإن القلب كلما كانت حياته أتم كان غضبه لله ورسوله أقوى. وانتصاره لدين الله أكمل» (١).

٦ - يقول تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨ - ٧٩].

وهذه الآية تبين أن سبب لعن بنى إسرائيل هو تركهم لواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

٧ - ويقول تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾

[الأنفال: ٢٥]

وهذه الآية تبين أن عدم فعل المنكر، أو عدم الظلم ليس كافيًا لنجاة الإنسان بل لابد وأن ينهى الناس عن المنكر وعن الظلم.

٨ - ويقول تعالى: ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

وتبين الآية أن النجاة فى النهى عن المنكر، وأن الهلاك فى فعله.

والآية تعقيب على أصحاب السبت الذين تحايلوا على شرع الله، فنهتهم الجماعة المؤمنة فلم ينتهوا.

٩ - ويقول تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر].

---

(١) من كتاب (أعلام الموقعين).

وما دام الإنسان عمومًا فى خسران إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، فتكون هذه الأربعة واجبة، ولا يكون التواصى بالحق والتواصى بالصبر إلا إذا كان ذلك داخل الجماعة.

١٠ - وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال: خطبنا عمر بالجابية فقال: يا أيها الناس: إنى قمت فيكم كما قام رسول الله - ﷺ - فينا، فقال: أوصيكم بأصحابى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يفشوا الكذب، حتى يحلف الرجل ولا يُستحلف، ويشهد الشاهد ولا يُستشهد، ألا لا يخلونَّ رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان، عليكم بالجماعة فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة» (١).

ويظهر من الحديث أن حاجة الناس إلى الجماعة تشتد كلما طغى الفساد وانتشر.

١١ - عن أبى موسى عن النبى - ﷺ - «والذى نفسى بيده لتأمرونَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر ولتأخذنَّ على أيدى المسئ، ولتأطرنَّه على الحق إطراً أو ليضربنَّ الله بقلوب بعضكم على بعض ويلعنكم كما لعنهم» (٢).

والفعل الذى يؤدى تركه إلى اللعن لا شك أن فعله يكون واجبًا، وكذلك مما لا شك فيه أن هذه الأمور الواردة فى الحديث لا يمكن أن يقوم بها الفرد وحده فعينت الجماعة.

١٢ - عن العرس بن عميرة قال: قال رسول الله - ﷺ - «إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى تعمل الخاصة بعمل تقدر العامة على أن تغيره، ولا تغيره، فذاك حين يأذن الله فى هلاك العامة والخاصة» (٣).

---

(١) رواه الترمذى وقال حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

(٢) رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح.

(٣) رواه الطبرى ورجاله ثقات.

وفى الحديث:

أن المعصية الفردية؛ أى التى يعملها آحاد الناس ولا يجهرون بها، لا يرجع عقابها على سائر الأمة، أما إذا استساغت الأمة معصية الخاصة وألفتها ولم تمجها مع القدرة على ذلك فإن العقوبة حينئذ تشمل العامة والخاصة.

العمل الجماعى ضرورة يحتمها الواقع:

كل الآيات السابقة والأحاديث، وغيرها، يصرفها بعض الدعاة إلى الجزئيات والفروع، فيجعلون من المسائل الفرعية الجزئية قضايا مصيرية!!

فيبذلون قصارى جهدهم ووقتهم ومالهم فى معالجة هذه القضايا الثانوية، ونسوا أن هناك المنكر الأكبر، يجب أن يُزال، وهناك المعروف الأكبر يجب يُؤمر به! فكيف توجد الفروع والأصول مفقودة؟!

والمنكر الأكبر الموجود هو غياب منهج الله عن الحياة، وغياب الخلافة الإسلامية التى ينضوى تحتها المسلمون؛ ومن ثَم فوجب تكريس جُل الجهود لإزالة هذا المنكر، وللأمر بالمعروف الأكبر؛ وهو التمكين لمنهج الله فى الأرض لتكون شريعة الله مهيمنة على كل جوانب الحياة، ولا يعنى هذا ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى سائر المسائل الفرعية: كلا!

ولكن أعنى بأن يأخذ كل شئ حجمه الطبيعى بلا تضخيم ولا تهويل ولا تهوين.

وإذا كانت المسائل الفرعية تصلح فيها المجهودات الفردية، فهل يصلح الفرد وحده أن يأمر بالمعروف الأكبر ويحقق ذلك؟! وهل يستطيع الفرد وحده أن ينهى عن المنكر الأكبر؟! بلا شك أن الواقع يشهد أنه للقيام بالأمر بالمعروف الأكبر والنهى عن المنكر الأكبر لا يمكن أن يتم إلا من خلال جماعة وذلك للأسباب الآتية:

١ – أن أعداء الإسلام يعملون فى نظام وتنظيم، فى صورة جمعيات سرية، أو فى صورة جمعيات علنية تلبس ثوباً آخر غير ثوبها.

فهل يعمل أعداء الإسلام فى دقة ونظام وتخطيط ونحن لا زلنا تختلف فى مدى شرعية العمل الجماعى؟! وإذا كان العمل الجماعى غير واجب! فكيف نواجه تكتلات الأعداء؟! وكيف نواجه تنظيماتهم السرية؟! بل والعلنية؟!

يقول الله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ** ﴾ [الأنفال: ٧٣].

فهل يُعقل أن ينصر الكافرون بعضهم بعضًا، ويحاربوننا مجتمعين ونحن نواجههم فرادى؟! أم أن الحل ألا نواجههم بالمرة؟! فالله - عز وجل - يبين لنا إلا نفعله مثلهم - فى تجمعهم ومناصرتهم لبعض - تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير. وهل هناك فتنة وفساد أكبر من تنحية منهج الله عن الحياة؟!

٢ - ما دامت مواجهة الأعداء واجبة، ولا يمكن ذلك إلا من خلال جماعة فتكون الجماعة واجبة إذ أن وسيلة الشئ تأخذ حكمه أى أن «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب».

٣ - أن مجهود الفرد - أيًا كانت قدراته - لا يمكن أن يقيم أمة تستعيد عزتها وكرامتها ومقدساتها، لكن أن تنضم المجهودات الفردية إلى بعضها فتكون بناءً قويًا، اللبنة القوية فيه تزداد قوة وتماسكًا، واللبنة الضعيفة تتقوى بأخواتها.

يقول الشيخ محمد الغزالى - رحمه الله - «والاتحاد قوة .. وليس ذلك فى شئون الناس فقط، إنه قانون من قوانين الكون، فالخيط الواهى إذا انضم إليه مثله أصبح حبلاً متينًا يجر الأثقال، وهذا العالم الكبير ما هو إلا جملة ذرات متحدة»(١).

٤ - الجماعة تنظم مجهودات الأفراد وتوجهها، وتنسق بينها وتوزع الأدوار فى الدعوة بحسب القدرات والطاقات فتنسجم مع بعضها وتتكامل، وبذا فإنها

---

(١) من كتاب (خلق المسلم).

تستغل كل الطاقات التى لو تركت دون توجيه لأهملت، أو لأخرجت فى غير فائدة.

٥ – الجماعة تشحذ عزم الأفراد وتصقل أرواحهم دائما، وتوجد لهم الأنشطة الدعوية التى يمارسونها.

٦ – الجماعة تعصم الأفراد من الشطط والزلل الذى يمكن أن يقع فيه الفرد بعيدا عن الجماعة.

٧ – الجماعة تجعل مجهودات الأفراد موجهة وجهة واحدة دون أن يهدم الفرد ما يبنيه غيره.

٨ – الجماعة بما لقيادتها على أفرادها من السمع والطاعة تمنع الخلاف الذى قد ينشب بين الأفراد.

فروى أبو هريرة – رضى الله عنه – عن رسول الله – ﷺ – قال «إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم»(١).

فإذا كانوا ثلاثة وجب عليهم أن يُنصِّبوا منهم أميراً عليهم وذلك لحل مسائل الخلاف وتنظيم الأمور، فما بالك بالذين يعملون لإحياء أمة؟! ألا يحتاجون إلى من يتولى قيادهم؟!

يقول عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – «لا إسلام إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمارة، ولا إمارة إلا بطاعة».

٩ – الجماعة تحافظ على أفرادها من التساقط والضياع.

وكم شهدت الساحة الإسلامية من أفراد علت أصواتهم، وكان لهم ما لهم من الصيت، ثم فجأة خفيت أصواتهم!!

وكم من الشباب قطعوا أشواطًا فى الطريق ثم لم يجدوا من يحتويهم ويوجههم الوجهة الصحيحة ويضعهم ضمن لبنات البناء، فذابوا وتفتتوا!! وأخذتهم الريح فألقت بهم فى مكان سحيق!!

---

(١) رواه ابن ماجة والطبرانى وهو حسن.

عاشراً : الإحســـان

الإحسان هو أن ينشد الإنسان الكمال فى كل شئ :

١ – ففى باب المعاملات والعلاقات الشخصية لا يكتفى بالعدل بل يتعداه إلى الفضل وهو الإحسان.

يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠].

يقول ابن كثير – رحمه الله – « يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل وهو القسط والموازنة ويندب إلى الإحسان كقوله: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل: ١٢٦].

وقوله: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾

[الشورى: ٤٠]

وقوله: ﴿ ... وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ﴾

[المائدة: ٤٥]

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على شريعة العدل والندب إلى الفضل » (١).

ويقول صاحب الظلال – رحمه – « وإلى جوار العدل .. الإحسان .. يلطف من حدة العدل الصارم الجازم، ويدع الباب مفتوحًا لمن يريد أن يتسامح فى بعض حقه إيثاراً لود القلوب، وشفاء لغل الصدور، ولمن يريد أن ينهض بما فوق العدل الواجب عليه ليداوى جرحًا أو يكسب فضلاً. والإحسان أوسع مدلولاً، فكل عمل طيب إحسان، والأمر بالإحسان يمثل كل عمل وكل تعامل.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٨٢.

فيشمل محيط الحياة كلها فى علاقات العبد بربه، وعلاقاته بأسرته، وعلاقاته بالجماعة، وعلاقاته بالبشرية جميعًا » انتهى.

٢ – وفى باب الأموال: يكون الإحسان بُحسن التصرف فى المال؛ وذلك بإخراج حق الله فيه ثم تعدى ذلك إلى الإنفاق فى سبيل الله، فى الجهاد وغيره، ثم إحسان الظن بالله أنه سيخلف عليه خيرًا مما أنفقه، فيكون ذلك قد أحسن إلى نفسه فلم يعرضها للتهلكة الناتجة عن ترك الإنفاق والجهاد فى سبيل الله.

يقول الله تعالى: ﴿ **وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [البقرة: ١٩٥].

والإنفاق فى السراء والضراء – مع كظم الغيظ والعفو عن الناس – من الإحسان الذى يحبه الله.

يقول تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وفى باب العمل: يكون الإحسان بإتقانه فى أحسن صورة، بأن يعمل الإنسان العمل لغيره كما يحب أن يعمله غيره له، فإعطاء العمل حقه، بلا غش ولا تدليس، وأداء العمل بلا خمول ولا استهتار، لهو الإحسان الذى يحبه الله.

يقول رسول الله – ﷺ – « إن الله كتب الإحسان على كل شئ فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته » (١).

وعن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال « مر رسول الله – ﷺ – على رجل واضع رجله على صفحة شاة وهو يحد شفرته، وهى تلحظ إليه ببصرها، قال: « أفلا قبل هذا؟ أو: تريد أن تميتها موتات؟! » (٢).

---

(١) رواه مسلم من حديث شداد بن أوس، ورواه أبو داود والترمذى وابن ماجة.

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط، ورجاله رجال الصحيح، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب.

وفى رواية الحاكم: «هلا أحددت شفرتك قبل أن تضجعها» (وقال صحيح على شرط البخارى).

فإذا كان هذا التعامل مع الحيوانات!! فكيف يكون التعامل مع بنى البشر؟!

ويقول الشيخ محمد الغزالى - رحمه الله - «إن الدين إذا لم يكن ارتفاعا بمستوى الإنسان فما يكون؟ وفى هذه الأيام العجاف أرى جماهير من المسلمين، أبعد أهل الأرض عن حقيقة الإحسان! بيوتهم رديئة، وطرقهم رديئة، وسيرهم ردئ وإذا صنعوا سلعة خرجت من بين أيديهم دون غيرها مما يصنع الناس، وإذا أرادوا عملا استغرق الكثير من الأوقات والجهود، ولم يبلغوا به درجة الاكتمال التى يحققها من بذل جهدا أضعف ووقتا أقل!! كأنهم من طينة غير طينة البشر خلقوا! هؤلاء الناس فى انتمائهم الدينى ريب كبير، ولكى يعود إلى الإسلام يجب أن يعاد تشكيلهم العقلى والخلقى حتى إذا باشروا عملا ما أقبلوا عليه بقواهم المادية والأدبية كلها، فخرج سليما كريما .. لا سيما ونحن فى حضارة صناعية تقاس فيها الأبعاد «بالمليمتر» أو بما دونه، ولا تقبل فيها المجازفات والمساهلات والمصادفات العمياء» (١).

٣ - والإحسان فى تمثيل الإسلام يكون بتجسيد الإسلام تجسيداً عمليا فى صورة المعاملات والأخلاقيات، بأن يكون الذين يمثلون الإسلام فى صورة المعاملات والأخلاقيات، بأن يكون الذين يمثلون الإسلام هم أسوة لغيرهم من الناس فى جميع المجالات.

يقول الشيخ محمد متولى الشعراوى - رحمه الله - «لو أن التمثيل السياسى للأمم الإسلامية فى البلاد غير الإسلامية المتحضرة قد أخذ بمبادئ الإسلام لكان أسوة حسنة. وانظر إلى عاصمة واحدة من عواصم الدول الغربية

---

(١) من كتاب المحاور الخمسة للقرآن الكريم.

تجد فيها أكثر من ثلاث وستين سفارة إسلامية، وكل سفارة يعمل فيها جهاز يزيد على العشرين هب أن هؤلاء كانوا أسوة إسلامية فى السلوك والمعاملات فى عاصمة غير إسلامية، حينئذ يجد أهل ذلك البلد جالية إسلامية ملتزمة ولم تفتنها زخارف المدنية: لا يشربون الخمر، ولا يراقصون، ولا يترددون على الأماكن السيئة السمعة، ولا تتبرج نساؤهم، بالله ألا يلفت النظر سلوك هؤلاء؟!

ثم يقول «إذن الإحسان من المسلمين أكبر دعاية ودعوة إلى دين الإسلام» (١).

* * *

جزاء الإحسان

١ - يقول تعالى: ﴿**بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [البقرة: ١١٢].

فمن أسلم وجهه لله وأخلص ذاته بكلياته وجزئياته لله - عز وجل - فاستسلم استسلامًا مطلقًا، ثم اتبع ذلك بالإحسان فى العمل، فيكون قد جمع بين العقيدة والعمل بمقتضاها، فهؤلاء لهم أجرهم عند ربهم كامل غير منقوص، سواء كان ذلك فى الدنيا أو فى الآخرة.

٢ - يقول تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا**﴾ [الكهف: ٣٠].

فهؤلاء الذين آمنوا وعملوا فأحسنوا العمل لا يضيع الله عملهم بل: ﴿**أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا**﴾ [الكهف: ٣١].

---

(١) تفسير الشعراوى المجلد الثانى.

٣ - يقول الله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

فهل يجازى الذين أحسنوا العمل إلا أن نحسن لهم الجزاء؟!

قال القرطبى - رحمه الله - «قال عكرمة: أى هل جزاء من قال لا إله إلا الله إلا الجنة؟!

وقال ابن عباس: ما جزاء من قال لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة.

وقال ابن زيد: هل جزاء من أحسن فى الدنيا إلا أن يحسن إليه فى الآخرة (١).

٤ - ويقول تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦].

يقول ابن كثير - رحمه الله - «يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل فى الدنيا بالإيمان والعمل الصالح: الحسنى فى الدار الآخرة كقوله تعالى ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ وقوله ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ هى تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وزيادة على ذلك أيضا ويشمل ما يعطيهم الله فى الجنان من القصور والحور والرضا عنهم وما أخفاه لهم من قرة أعين وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه لا يستحقونها بعملهم بل بفضله ورحمته، وقد روى تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم عن أبى بكر الصديق وحذيفة بن اليمان، وعبد الله بن عباس وسعيد ابن المسيب ومجاهد وعكرمة والضحاك والحسن والسدى وغيرهم» (٢).

ويقول ابن رجب الحنبلى رحمه الله: وقد ثبت فى صحيح مسلم عن النبى ﷺ تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله تعالى فى الجنة، وهذا مناسب لجعله جزاء

---

(١) الجامع لأحكام القرآن جـ ١٧.

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢.

لأهل الإحسان، لإن الإحسان هو أن يعيد المؤمن ربه فى الدنيا على وجه الحضور والمراقبة كأنه يراه بقلبه وينظر إليه فى حال عبادته فكان جزاء ذلك النظر إلى وجه الله عيانًا فى الآخرة (١).

* * *

إحسان الدعاة إلى الله - عز وجل -

إذا كان الإحسان مندوبًا فى حق عامة المسلمين فإن ندبه يزداد أهمية فى حق الدعاة إلى الله عز وجل، إذ أنهم لا يليق بهم أن يرغبوا الناس فى الفضل ويكتفوا هم بالعدل! وأعنى بذلك أن يجعل الداعية نفسه مجالاً للتجربة قبل أن يطلب من الناس فعل الفضل والإحسان، إذ أن حديثه حينئذ يكون حديث الذى ذاق حلاوة الفضل والإحسان، لا حديث الذى يعيش فى الخيال بعيداً عن الواقع، ولا تؤتى الدعوة إلى الإحسان والفضل ثمرتها إلا إذا كان الداعية نفسه من أهل الفضل والإحسان، فلا يصح أن يطلب الداعية من الناس معالى الأمور، ولا يتعالى عن سفاسفها!! وقد تجد بعض الدعاة يطلب الكمال وينشده فى المجالات التى لا تكلفه جهداً ولا مالاً!! فإذا ما كان تاجراً مثلاً، تراه يغالى فى أسعاره، شأنه فى ذلك شأن باقى الناس إن لم يكن أكثر منهم مغالاة!! وتراه كثيراً ما تشغله تجارته عن أعماله الدعوية، بل والتعبدية المحضة!! وفى هذا المجال الذى ينبغى عليه أن يتعامل بالفضل تراه يذهب يلتمس الرخص والمعاذير!

فإذا ما كان الأمر بعيداً عنه نراه يطالب الناس بالفضل والإحسان!

وبعض الدعاة إذ ما وقع فى محك عملى يتطلب منه العفو والصفح تراه يُعرض عن الفضل والإحسان، شأنه فى ذلك شأن عامة الناس! وعمومًا فإن المطلوب من الداعية أن يمارس الإحسان والفضل فى مجال عمله بالدرجة الأولى، فالداعية الحق من كان فى مجال عمله مثالاً يحتذى، فى انضباطه وفى إتقانه؟

---

(١) من كتاب (جامع العلوم والحكم).

وفى إخلاصه، أما أن يكون الداعية نموذجًا سيئًا فى عمله، فنراه فوضويًا، غير متقن لعمله، غير متورع عن الشبهات!!! فهذا يكون قد فشل فى أول اختبار تطبيقى عملى فيحتاج إلى مراجعة دقيقة ومحاسبة شديدة لنفسه وليجعل مجال تحديه لنفسه مجال عمله. وعلى الدعوة أن تربى أفرادها على أن يكون الإحسان متأصلاً فيهم فالتسامح والتسامى وترك بعض الحقوق عن طواعية واختيار، ومما هو جدير بالذكر أن هناك بعض المواقف تتطلب من الداعية الشدة ولا يُجدى معها التسامح، فهذه تقدر بقدرها.

* * *